

القرآن وحفظه

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام

للاستاذ الدكتور
عبد العزيز غنيم عبد القادر
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الأزهر

سلسلة البحوث الإسلامية

السنة الثالثة والعشرون - الكتاب الثالث

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

يا حارس القرآن يا ليث الشرى
حياك من حفظ القرآن وفسرا

من أجله حزت المكارم كلها
في الدين والدنيا وسست الأزهرا

فاليوم كل مصدق بمحمد
في الأرض يدعوك الإمام الأكبرا

هذا مقامك في الحياة فإن تجز
فأعز منزلة وأكرم مظهرهرا

يا جاد جاد الحق يا علم الهدى
يا حجة الإسلام يا زين الورى

إن الذى بعث ابن هاشم شاهدا
ومبشرا للعالمين ومنذرا

أعطاك راية دينه وكتابه
وحباك جندا مثل آساد الشرى

أقلامهم مثل السيوف صوارم
ولسانهم أمضى وأصعب مكسرا

باعوا لرب العالمين نفوسهم
بمنازل الفردوس والله اشترى

هم طوع أمرك ليس فيهم خائر
إن شبت الحرب الضروس تقهقرا

فارم العدو بهم فأنت مظفر
وارفع لواءك فوق همامات الذرا

وانشر كتابا في القرآن وأهله
في عصر أحمد كالسراج منورا

يطرى الذين بحفظه قد شرفوا
وتصدروا في كل علم أبحرا

قد صغته للطير لحنا ساحرا
ونشرته في الكون مسكا أزفرا

ونظمته عقدا لكل من اقتفى
أثر النبي وصحبه وتطهرا

فإذا أمرت فكان في أيديهم
قبل الصيام كان فضلك أغزرا

لا زال عهدك للمعارف كوثرها
يروى أمانينا ويثري الأزهرها

عبد العزيز غنيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد السيد أحمد سعود

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فإن القرآن كتاب الله الحق ، الذي نزل بالهدى والحق ، قال تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » وقال جل شأنه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » .

هذا الكتاب العزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه « تنزيل من حكيم حميد » .

كتاب اشتمل على كل ما من شأنه أن يصلح الحياة والأحياء ، ولم يفرط في شيء من هذا . « ما فرطنا في الكتاب من شيء » صدق الكتب السابقة وتضمن تعاليمها وزاد عليها ما يتفق وعقول البشرية ، وقد وصلت إلى رقيها ونضجها . قال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه » .

يقول الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن : والقرآن مآدبة الله لمن شاء أن يتأدب ، ومآدته لمن أراد أن يطعم ويتذوق ، فمن أمثال هي عبرة لمن يتدبر ، الى أوامر هي هدى لمن يستبصر ، ومن أحكام فيها فصل ما بين الحلال والحرام ، الى قصص فيها عظة لذوى الأحلام ، وأخبار تحكى سير الأولين ، وأنباء تروى حياة الأنبياء والمرسلين ، الى غير ذلك مما يزرع خشية الله فى النفوس ، ويغرس هيئته فى القلوب ، ويقضى على علل الأفتدة وأدوائها ، ويجهز على حوائج الحياة وأرزائها ، ويعمق الايمان فى الجنان ، ويزيل أسباب الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعل المجتمع كله كالصف الواحد ، والجسم الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

والحديث عن القرآن مشوق ومحبيب الى النفوس والكتاب الذى بين أيدينا « القرآن وحفاظه فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام » للأستاذ الدكتور عبد العزيز غنيم عبد القادر « نقدمه للقارىء راجين النفع لنا جميعاً والله الهادى الى سواء السبيل .

أحمد السيد أحمد سعود
الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد :

فقد ترددت كثيراً وأنا أفكر في كتابة هذه السطور ، ولم يخالجنى ريب فى أننى إن فعلت عدوت طورى ، وتجاوزت قدرى ، وتطلعت الى ما لا ينبغى أن يتطلع اليه مثلى ، وكيف أكتب عن القرآن وحفاظه فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنا أعرف أن له أهلاً اصطفاهم الله له وأعدهم لأجله ، وأعطاهم القدرة على بلوغ أوجه ، والصعود الى أفقه ، ولست واحدا منهم ، ولا تابعا من أتباعهم .

ثم إن للكتابة فى القرآن أو فى علم من علومه شروطاً لا أدرى إذا كان لدى منها شىء أم لا ، ورحم الله أبابكر رضى الله عنه ، فقد سئل عن تفسير شىء من كتاب الله فقال : أى أرض تقلنى ، وأى سماء تظلمنى ، إذا أنا قلت فى كتاب الله غير ما يريد الله .

غير أننى ما لبثت أن تذكرت أننى دخلت هذا الميدان

من قبل ، وعشت بين رجاله سنين عددا ، وذلك عندما شاركت في تحقيق تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير والتعليق عليه ، وإذاً فلماذا هذا الخوف ، وهذا التردد؟ ولما لا يجوز أن يكون الله تعالى قد أراد لى هذا الشرف ، وجعلنى من الذين اختارهم لخدمة القرآن وخدمة المنقطعين له ، والمكرسين حياتهم من أجل إفشائه ، واستنباط أحكامه وأهدافه .

وما إن خطر لى هذا خاطر حتى ذهب عنى الهم ، وانجاب اليأس ، وبدأت فى كتابة هذه السطور ، فوصفت القرآن على قدر جهدى مقتبسا من كلام النبى عليه الصلاة والسلام ، والسلف الصالح من أصحابه وأتباعه ، ومن أقتفى أثرهم ، ونسج على منوالهم من الصالحين والعلماء العاملين .

وانتقلت الى نزول القرآن ، وذكرت أنه كان فى اللوح المحفوظ ، ومنه الى السماء الدنيا ، وبعد ذلك هبط به الروح الامين على قلب سيد المرسلين ، وهو فى غار حراء فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء .

وكان ذلك فى ليلة السابع عشر (١) من شهر رمضان

(١) نزل فى ليلة القدر ، وليلة القدر لم يتفق على ليلتها والمشهور أنها ليلة السابع والعشرين من الاشراف الفنى .

حيث دارت رحى غزوة بدر الكبرى بين المسلمين
والمشركين بعد أربع عشرة سنة من هذا التاريخ .

وقد شاء الله ألا ينزل هذا الكتاب جملة واحدة ، كما
أنزلت التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية ،
وإنما نزله أجزاء في بضع وعشرين سنة ، تبعا للحوادث
حتى يعلق عليها ، ويبين حكم الله فيها ، ويداوى
مشكلات المجتمع المسلم مشكلة إثر مشكلة ، لأن العادات
لا تعالج طفرة ، ولا تداوى جملة وإنما تحتاج في زوالها
الى أزمنة ممتدة وأوقات طويلة ، وقد أوردت حجج
الكفار ودحضتها بما يدمغها معتمدا على الجدل
الهادى والنقاش القائم على أقيسة العلم وقوانين
المنطق ، وانتقلت الى المكي والمدنى من القرآن ، وبينت
أن للعلماء فيهما تعاريف شتى ، وحدوداً مختلفة يرجع
بعضها الى المكان ، وبعضها الى الزمان ، وبعضها الى
الخصائص والمزايا التي يختص بها كل جانب من هذين
الجانبين ، وانتهيت الى أن الاتجاه الثالث هو الأفضل
والأرجح .

وبعد وصفى للقرآن وعرضى لنزوله ، وذكرى للعلل
والأسباب التي من أجلها لم يكن نزوله جملة واحدة ،
وبيانى للفرق بين المكي منه والمدنى ، تحدثت عن تلقى
النبي عليه الصلاة والسلام له عن الروح الأمين ، وتلقى

أصحابه صلوات الله وسلامه عليه له عنه ، وقادنى ذلك الى أن أوجز القول فى الوحي وأنواعه ، وفى الطبيعة البشرية والطبيعة الملائكية ، وكيف كان محمد عليه الصلاة والسلام يتلقى عن جبريل ، وبين الطبيعتين ما بينهما من الفرق الهائل والبون البعيد .

وكان علىَّ بعد ذلك أن أبين منزلة قارىء القرآن ، وكيف أن الله تعالى رفع قدره فى الدنيا والآخرة ، وجعل درجته فى الجنة عند آخر ما تلا ، ثم تناولت الأحرف واللهجات التى نزل عليها القرآن ، وذكرت أن للعلماء فى تفسيرها وجوها كثيرة ، ولأننى كتبت هذه السطور لعامة الناس وبسطائهم فإننى لم أذكر هذه الوجوه كافة ، وإنما اقتصرتها منها على ما يشبع المقتصد ، ويحفظ المجتهد على متابعة الدرس ومحاولة الاستقصاء .

وفى المنهج النبوى للمحافظة على القرآن ، أمطت النقاب عن الخطة التى وضعها النبى عليه الصلاة والسلام ، لتحفيظ الأمة كتاب الله تعالى وتلك التى وضعها لكتابته ونسخه ، ولخصت العلة التى من أجلها حفظ الله القرآن وحده ، ولم يحفظ التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية .

وكان لزاما علىّ بعد هذا الحديث الموجز عن القرآن في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، أن أقف وقفة يسيرة حيال نقطتين هامتين .

إحداهما : جمع القرآن الأول ، وقد بينت أنه كان في عهد أبى بكر ، وأن السبب فيه هو موت الكثيرين من الحفاظ في وقعة اليمامة ، وأن الذى حمل هذه المهمة الصعبة هو زيد بن ثابت .

والنقطة الثانية : وهى الجمع الثانى ، وقد كان فى عهد عثمان رضى الله عنه ، وعلى يد زيد بن ثابت وأحد عشر رجلا آخرين : والفرق بينه وبين الجمع الأول ، هو أن ما وقع فى خلافة أبى بكر قد كان نسخاً للقرآن من أفواه الحفاظ ومن اللخاف والجلود والأكتاف وغيرها ، وما وقع فى خلافة عثمان قد كان جمعا للأمة على مصحف واحد وحرق ما عداه من المصاحف الأخرى التى كانت لدى الصحابة والتى كان كل واحد منها يعزى الى صاحبه فيقال مثلا مصحف على ، ومصحف أبى ، ومصحف ابن مسعود الى آخره .

وفى نهاية هذا الحديث تساءلت عن ترتيب الآيات والسور فى القرآن ، وأوردت بعض الآراء المعروفة فى هذا الموضوع ، وانتهيت الى أن ترتيب الآيات والسور كليهما

إنما هو من عمل الله سبحانه ، وإنه ليس للنبي ولا لأحد من أصحابه دخل فيه .

وفي العلاقة بين القرآن والسنة أوضحت وفي إيجاز أن السنة ضرورية لفهم أحكام القرآن ، وما جاء فيه من العبادات والمعاملات وغيرها ، فالصلاة مثلا مذكورة في القرآن ، ولكن أركانها وشروطها وأوقاتها لا تعرف إلا من السنة ، وقل مثل ذلك في الزكاة والصيام والحج .. الى آخره .

وقد قام الاسلام على دعامتين : إحداهما الكتاب ، والثانية السنة ، فمن أنكر أحد هذين الركنين فقد أنكر الاسلام كله ، وفي نهاية هذا الفصل الأول تحدثت عن التفسير في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، فذكرت حاجة العرب اليه ، وقيام النبي صلوات الله وسلامه عليه به ، والشروط التي يجب توافرها في من يتصدى له ، وناقشت الذين يزعمون أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسر سوى الآيات التي تتناول المغيبات ، وأثبت خطأهم في فهم الحديث المنسوب الى أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها .

وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب تحدثت عن السمات التي تميز الجانب المكي من القرآن ، وبينت أنها

كثيرة ، غير أنها تتلخص في الدعوة الى توحيد الله ،
والبرهنة على وجوده ، ونقد ما كان سائدا في المجتمع
المكي خاصة ، والمجتمع العربي على سبيل العموم من
الأعراف الضالة والعادات الفاسدة ، والأخلاق التي
تدفع الأب الى وأد ابنته ، والابن الى أن يعضل زوجة
أبيه ، والمرء الى أن يقتل نفسه اذا ضاقت عليه الدنيا
وسدت أمام عينيه مذاهب العيش ، أضف الى هذا ما
جاء في هذا الجانب من أخبار السابقين وأنباء الغابرين
وقصص الأنبياء والمرسلين ، وهذه الأحاديث التي
تناولت البعث وما جاء بعده من أهوال يوم القيامة
والحساب والثواب والعقاب والصراط والميزان والجنة
والنار ، الى آخر ما ذكرنا في بداية الفصل .

وبعد هذا السبح القصير ، تناولت حفاظ القرآن من
أهل مكة ، وأثبت أنهم كانوا سبعة رجالة
كلهم حفظوا القرآن من ألفه الى يائه ،
في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد
أوجزت سيرة كل واحد من هؤلاء ، وسلطت الأضواء
على الدور الذي قام به في خدمة القرآن وإفشائه ،
وتوضيح أحكامه وأهدافه ، وكيف أن كل واحد منهم
قد أخذ نصيبه من الدنيا وما عند الله له خير وأبقى .

وعلى هذا المنوال نفسه نسجت في الفصل الثالث
والأخير ، فذكرت السمات التي تميز الجانب المدني من

القرآن ، وقلت إنها كثيرة ومتنوعة ، فالتشريع كله قد كان في المدينة ، وكذلك الحديث عن شئون المجتمع المسلم في السلم والحرب ، والسياسة والقيادة ، والعلاقات الدولية التي كانت بين المسلمين وغيرهم من الأمم والقبائل التي كانت تتاخم حدودهم ، وتعيش على كئيب من بلادهم ، الى آخر ما سطرته في مدخل هذا الفصل ، وبعد هذا الحديث تناولت الحفاظ الذين جمعوا القرآن من بدايته الى نهايته من أهل المدينة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وذكرت أنهم كانوا خمسة ، وأن أربعة منهم قد كانوا من الخزرج ، وتساءلت عن السر في هذا ، وانتهيت الى أنه هو بركة النبي عليه الصلاة والسلام ، قد مست أخواله وأصهاره ، فإن هاشم ابن عبد مناف قد تزوج من الخزرج ، وأنجب ولده عبد المطلب ، وهذا هو السر كذلك في أن الله تعالى قد اختار المدينة داراً لهجرته صلوات الله عليه ، وأنه اختار دار أبي أيوب مقاما له ، حتى بنى مسجده وحجرات أزواجه .

وعلى كل حال فإنني أوجزت سير هؤلاء الحفاظ الخمسة ، وبينت أنهم كانوا بحوراً للعلم زاخرة ، وبدوراً للفضل باهرة ، وكنوزاً حوت ألطاف الثقافة وأفوايق المعرفة ، تلك كانت قصصهم في الدنيا ، ويوم

القيامة لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وفي نهاية هذا الفصل الثالث والأخير تساءلت عن السر في أن هؤلاء الحفاظ الذين جمعوا القرآن من ألفه الى يائه في حياة النبي عليه الصلاة والسلام قد كانوا إثني عشر تماما كما كان عدد الشهور وعدد الأسباط والنقباء من بنى إسرائيل ، وعدد نقباء الأوس والخزرج كليهما في بيعة العقبة ، وعدد نقباء دعاة بنى العباس ، وهل بين هذه جميعا وبين عدد الحفاظ جامعة تجمع بينهما ، أو وشيجة تصل بينهما ببعض ، أم أنه لا علة لذلك سوى المصادفة المحضة والاتفاق الذي لا باعث له ولا غرض .

وبعد فهذه عجالة موجزة عن القرآن وحفاظه من أهل مكة والمدينة في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، أقدمها في استحياء بين أيدي القراء ، وأنا على يقين من أنني عندما امتد بصرى الى هذا الأفق الرفيع ، قد عدوت طورى وتجاوزت قدرى ، ومع أنني قد كرت لهذه السطور جهدى ، وفرغت لها وقتى ، وأرهقت من أجلها نفسى وحسى ، فإننى على ثقة من أنني لم أبلغ الغاية ولم أدرك الهدف ، لأننى طلبت ما هو فوق مستوى علمى وفكرى ، ولست أرجو من الله إلا أن يغفر لى جرأتى ، وألا يحاسبنى على خطئى فحسبى نبل

الهدف ، وسمو الغرض ، وحسن النية ، وصدق الطوية .

« ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

أ هـ / عبد العزيز غنيم عبد القادر

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الأزهر

وعضو مجمع البحوث الإسلامية



الفصل الاول



القرآن وعلومه

1880

1881

1882

1883

الفصل الأول القرآن وعلومه

(أ) وصف القرآن :

القرآن هو كتاب الله الخالد ، وبيانه الراشد ، وآياته البازغة ، وحجته البالغة ، وحبله المتين ، وضياؤه المبين ، وهو الذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، والرحمة العامة ، والنعمة التامة ، من علم علمه سبق ، ومن قال قوله صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، هو الحق الذي لا ريب فيه ، وهو الصدق الذي لا كذب فيه ، من ابتغى الهدى فيه هداه الله ، ومن طلبه في غيره أضله وأغواه ، لا تزيف به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء (١) ، ولا ينأى عنه الاتقياء ، ولا تنتهي عجائبه ، ولا تنقضى غرائبه ، أعجزت الفصحاء معارضته ، وأعيت البلغاء مناقضته ، وأخرست الحكماء مشاكلته ، هو الفصل ليس بالهزل ، فيه خبر من قبلنا ، ونبا ما بعدنا ، وحكم ما بيننا ، هو كلام من

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٤/١ ط دار الشعب .

ليس كمثلته شيء ، وهدى من لا شريك له ولا ند ، وهو الذى ما إن سمعته الجن حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجباً • يهدى إلى الرشـد فأمانا به ولن نشرك بربنا أحداً » (١) •

والقرآن مآدبة الله (٢) لمن شاء أن يتأدب ، ومآدبته لمن أراد أن يطعم ويتذوق ، فمن أمثال هـى عبرة لمن يتدبر ، الى أوامر هـى هدى لمن يستبصر ، ومن أحكام هـى فصل ما بين الحلال والحرام ، الى قصص هـى عظة لذوى الأحلام ، وأخبار تحكى سير الأولين ، وأنباء تروى حياة الأنبياء والمرسلين ، الى غير ذلك مما يزرع خشية الله فى النفوس ، ويغرس هيبته فى القلوب ، ويقضى على علل الأفتدة وأدوائها ، ويجهز على جوائح الحياة وأرزائها ، ويعمق الإيمان فى الجنان ، ويزيل أسباب الكفر والفسوق والعصيان ، ويجعل المجتمع كله كالصف الواحد ، والجسم الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر •

ذلك هو القرآن الذى تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا (٣) ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من

(١) سورة الجن : ٢ ، ١

(٢) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤/٥ ط عيسى البابى الحلبي . ذيل الكتاب فى فضائل القرآن •

(٣) محمد بن جرير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ،

١٦٥/١ ط مصطفى الحلبي ، ٣ ط سنة ١٩٦٨ م .

مثله فوهنوا وضعفوا ، وتحداهم أن يأتوا بسورة من
سوره فصمتوا وانقطعوا . « قل لئن اجتمعت الإنس
والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله
ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) .

(ب) نزول القرآن :-

وقد أودع الله كتابه هذا في اللوح المحفوظ ، ثم أنزله
الى السماء الدنيا ، ليهبط به جبريل على محمد صلوات
الله عليه ، منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، هي حياته
من لدن مبعثه الى حين وفاته (٢) .

وقد تسألنى : وما هي أول آية نزلت منه ، ومتى
نزلت ؟ وما هو المكان الذى نال هذا الشرف دون غيره
من شتى أرجاء الدنيا ؟ والجواب : أن محمداً كان يأوى
في كل عام الى غار حراء ، فيتحنث فيه الليالى ذوات
العدد (٣) ، ثم يعود الى بيته وقد صفا قلبه ، واطمأنت
نفسه ، واستراح الى ملة إبراهيم فؤاده ، فلما بلغ أشده
واستوى ، وبلغ أربعين سنة ، طلب من زوجه أن تعد
له زاده ، وأخبرها أنه متجه الى غار حراء ، وأنه سوف

(١) سورة الاسراء : ٨٨

(٢) الامام جلال الدين السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١/١٤١
مطبعة حجازى بالقاهرة .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢/٣ دار الفكر ، بيروت ١٩٧٨م .

يقيم فيه هذا العام شهر رمضان كله ، وأجابته زوجته الى ما أراد ، وفي هذا الغار المبارك ، راح محمد يفكر في ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، في الأرض وكيف دحيت ، في السماء وكيف رفعت ، في الكواكب والنجوم وكيف تهدي الناس في ظلمات البر والبحر .

وأخذت الأيام تمضي ، وراحت الليالي تتوالى ، حتى اذا كانت الليلة السابعة عشرة من هذا الشهر ، هبط عليه الروح الأمين ، وفي يده دباجة ، نقش عليها كلام لا يعرفه ، لأنه لم يكن يقرأ ولا يكتب ، ولما دنا منه الملك قال له : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فغطه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فغطه الثانية حتى بلغ منه الجهد ، ثم أرسله وقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، ففعل معه ما فعل في الأولى والثانية ، ثم أرسله (١) وقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (٢) فكانت هذه هى الآيات الأولى ، التى نزلت من القرآن ، وقرأ فى هذا إن شئت قوله تعالى فى سورة البقرة :

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٣

(٢) سورة العلق : ١ - ٥

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس
وبيينات من الهدى والفرقان » (١) وقرأ كذلك قوله
عز وجل فى سورة القدر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر .
وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر .
تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام
هى حتى مطلع الفجر » (٢) .

وواضح من الآية الأولى من هاتين الآيتين ، أن
القرآن قد نزل فى رمضان ، وواضح من الثانية ، أن
الليلة التى كان نزوله فيها هى ليلة القدر ، وقد صادفت
الليلة السابعة عشرة من هذا الشهر ، فى هذا العام
الذى هبط فيه الوحي على محمد عليه الصلاة والسلام (٣)

(د) تنجيم القرآن :

وقد شاء الله ألا ينزل القرآن جملة واحدة كما أنزلت
الكتب السماوية السابقة ، وإنما ينزل منجماً ومجزئاً
فى ثلاث وعشرين سنة (٤) ، وذلك حتى يوافق وقوع
الأحداث (٥) ، وتتابع الظروف واختلاف المواقف

(١) سورة البقرة : ١٨٥

(٢) سورة القدر : ١ - ٥

(٣) اشتهر أنها ليلة السابع والعشرين - الاشراف الفنى .

(٤) تفسير ابن كثير ٥٢٩/٤

(٥) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ٤٢/١

وعروض المشكلات ، فيعالج كل حادثة بما تحتاج ،
ويداوى كل ظرف بما يتطلب ، ويطب كل موقف بما
يقتضى ، ويحل كل مشكلة بما يحسمها ويجهز على
أسباب عروضها ، هذه علة ، وعلة ثانية وهى : أن
أمراض المجتمع وأدواءه لا تداوى طفرة ، ولا تعالج
حسما وقطعا ، وإنما تتطلب الوقت الطويل ، والصبر
الكثير ، والمعالجة شيئا بعد شيء حتى تزول آثارها
من النفوس ، ويمحى وجودها من القلوب ، وإلا أخفق
الدواء وازدادت ضراوة الداء ، وأبى المجتمع إلا الرسوخ
على أعرافه ، والبقاء على تقاليدته ، والسير على سنن
الآباء والأجداد ، ولو تبين للعقل خطأه ، واتضح في
الذهن سوءه وقبحه ، واقرأ فى هذا إن شئت قوله
تعالى : « واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه
ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال
هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون .
قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال أفأرأيتم ما
كنتم تعبدون . أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو
لى إلا رب العالمين » (١) .

فقد حاور إبراهيم كما رأيت قومه حول عبادة
الأصنام ، فلما أعيتهم محاورته وأعجزتهم مناقشته

ولم يجدوا حجة يواجهونه بها ، ولا دليلا يرفعونه أمامه قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا لا نخالف سبيلهم ، ولا نسلك طريقا غير طريقهم .

فأدواء النفوس وأمراض المجتمعات ، لا تعالج إلا وفقا للمنهج الذى وضعه الله ، والخطة التى على أساسها نزل القرآن ، وقد سجل الحق تبارك وتعالى اعتراض الكفار على عدم نزول القرآن جملة واحدة ، والجواب الدامغ عليه فقال فى سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » (١) .

والمعنى : إن المشركين وأهل الكتاب يتساءلون عن السبب الذى من أجله نزل الله القرآن مجزءا ولم ينزله جملة كما أنزل التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السابقة ؟ والجواب : أن السبب هو تثبيت قلب النبى صلوات الله وسلامه عليه (٢) ، ودوام اتصال الوحي به وتحقيق رغبته فى هداية مجتمعه والقضاء على ما فيه من العلل والأمراض التى تتطلب فى معالجتها الوقت الطويل والصبر الجميل .

(١) سورة الفرقان : ٣٢

(٢) السيوطى : الاتقان ٤٣/١

ولكى يتضح هذا الأمر ، فإننا سوف نذكر مثالا واحداً يقاس عليه غيره ، وهو تحريم الخمر ، فقد وصل القرآن اليه عبر ثلاث مراحل ، ونزلت فيه ثلاث آيات ، الأولى قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (١) . والثانية قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٢) . والثالثة قوله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (٣) .

وواضح من الآية الأولى أنها لم تحرم الخمر وإنما ذكرت أن فيها إثماً كبيراً ومنافع للناس وأن إثمها أكبر من نفعها ، وعلى العاقل أن يؤثر ما لا إثم فيه على ما فيه إثم وإن كانت فيه منفعة ، وقد استجاب لذلك فريق من المؤمنين وحرموا على أنفسهم الخمر .

(١) سورة البقرة : ٢١٩

(٢) سورة النساء : ٤٣

(٣) سورة المائدة : ٩٠ ، ٩١

وواضح من الثانية أنها لا تحرم الخمر كذلك ، وإنما
تطلب من المؤمنين ألا يقربوا الصلاة وهم سكارى ، لأن
السكر يذهب عنهم حضور العقل ، وخشوع النفس ،
ويغطى على إدراكهم فلا يدرون ما يقولون ، ولأن الله
تعالى قد فرض على الناس خمس صلوات في كل يوم
وليلة ، تبدأ بالفجر وتنتهى بالعشاء ، فإن فريقاً من
ذوى البصائر حرموا الخمر على أنفسهم حتى لا يحين
وقت من أوقات الصلوات الخمس وهم على سكر .

وتبقى الآية الثالثة وهذه قد حسمت الأمر ، وحرمت
الخمر ، ووصفتها بأنها رجس من عمل الشيطان الذى
يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، ويصدهم
عن الذكر والصلاة ، ويقول الرواة : إنه لما نزل قوله
تعالى : « فهل أنتم منتهون » . قال الناس : انتهينا .

أرأيت الى هذا الأسلوب العجيب ، وهذا المنهج
الغريب ، فى علاج أمراض المجتمع ومداواة أسقامه ،
لقد راح يبعد العرب عن الخمر شيئاً فشيئاً حتى اجتث
شجرتها من أعماق قلوبهم فكرهوها ، وقد كانوا يحبونها
ولا يطيقون الصبر على عدم تناولها ، أرأيت لو أن
القرآن لم يسلك معهم هذا المسلك ، وحرم الخمر طرفة
ومن غير مقدمات ، أكانوا يستجيبون له

وينصاعون لأمره ، يخيل إلى أنهم كانوا سيعارضون ويثورون ولا يمتنعون عن تعاطى هذا الشراب الذى ألفوه ، والذى رأوا الآباء والأجداد يحبونه ، ولا يطبقون صبرا على تركه والابتعاد عنه ، وما قلناه فى تحريم الخمر ، نقوله فى غيره مما سلك القرآن بإزائه هذا المسلك ، والتزم فى معالجته ومداواته هذا المنهج ، فاعتراض المشركين وأهل الكتاب على تنجيم القرآن مما لا حجة له ولا تروى فيه .

المكى والمدنى من القرآن :

ولأن النبى عليه الصلاة والسلام قد بعث فى مكة وهاجر منها الى المدينة ، وانقسم عمره فى الدعوة الى الاسلام فيهما ، فقضى فى الأولى ثلاث عشرة سنة ، وقضى فى الثانية عشر سنين (١) ، ولأن نزول القرآن قد بدأ منذ هبط عليه الوحي فى غار حراء ، وانتهى بعد أن أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة فى العام الحادى عشر من الهجرة ، فإن العلماء قد قسموا هذا الكتاب المجيد الى قسمين : وأطلقوا على الأول منهما اسم المكى ، وأطلقوا على الثانى اسم المدنى ، لكنهم لم يتفقوا على تحديد كل منهما ، فقال فريق ، إن المكى هو ما نزل فى مكة ، وإن

(١) تفسير ابن كثير : ٢/٤

المدنى هو ما نزل في المدينة (١) وقال فريق ثان : إن
المكى هو ما نزل قبل الهجرة (٢) وإن المدنى هو ما نزل
بعدها (٣) .

وواضح من هذين التعريفين ، أن الأول قد راعى في
نزول القرآن المكان ، وأن الثانى قد راعى الزمان ، وثم
فريق ثالث لم يراع هذا ولا ذلك ، وإنما راعى شيئاً
آخر ، وهو المنهج فقال : إن الآيات التى تدعو الى
وحدانية الله ، وتقيم الأدلة على وجوده ، وتتناول النشر
والحشر ، والصراط والميزان والجنة والنار ، وتحكى
أخبار الغابرين وتقص سير الأنبياء والمرسلين ، وتلفت
النظر الى سنن الله وآياته فى هذا الكون الواسع العريض
هى الآيات المكية ، وإن التى تتناول التشريعات المدنية
والجنائية ، والجوانب الاجتماعية الأدبية منها
والأخلاقية ، والعبادات ، من صلاة وزكاة وصيام وحج ،
وبعبارة جامعة التى تتناول المجتمع من كافة نواحيه
فى السلم والحرب وغيرهما هى الآيات المدنية (٤) .

(١) السيوطى : الاتقان ٩/١

(٢) تفسير ابن كثير : ٣/٤ ، الزركشى : البرهان فى علوم القرآن

١٨٧/١ دار المعرفة بيروت سنة ١٩٧٢م .

(٣) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن : ٩/١

(٤) الزركشى : البرهان ١/١٨٨ ، ١٨٩

وأنت صاحب الاختيار المطلق في ترجيح ما تشاء من هذه الآراء الثلاثة ، وإن كنت أنصح ذوى المعرفة والثقافة الواسعة ، أن يختاروا الرأى الثالث ، لأنه يحتاج الى إعمال للعقل ، واعتماد على التأمل والروية فليس كل الناس يعرفون ما يدخل باب التقنين والتشريع وما يدخل في باب العقيدة وإقامة الأدلة على وجود الله تعالى ، وثبوت الواحدانية له .

ولا تظن أن المكى من القرآن قد وضع في سور تخصه ، وأن المدنى كذلك ، وإنما ذكرت في السور المكية آيات مدنية ، وذكرت في السور المدنية آيات مكية (١) ، وذلك مراعاة لأهداف هذا الكتاب العزيز ، في الهداية والإرشاد والتأديب والتعليم ، وصدق الله إذ يقول : « آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٢) .

تلقى النبى للقرآن :

ومهما يكن من شىء فإن جبريل عليه السلام قد كان يأتى محمداً فينبث في روعه ما شاء الله من القرآن ،

(١) نفس المرجع السابق ١٥/١

(٢) سورة هود : ١

ثم يغادره ، فإذا سرى عنه أعاد في نفسه ما سمعه منه من غير زيادة ولا نقص ، ولحرصه صلوات الله وسلامه عليه على ما كان يتلقاه ، فإنه كان يحرك به لسانه أثناء تلقيه فنهى (١) عن ذلك في قوله سبحانه : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه (٢) . وقد تسأل : وكيف كان جبريل يبلغ محمدا صلوات الله عليه وحى ربه اليه ؟ والجواب : كان يأتيه حيناً وله صلصلة مثل صلصلة الجرس ، وكان يأتيه حيناً آخر وله دوى مثل دوى النحل ، وأحياناً ما كان ينزل عليه في صورة دحية الكلبي ، أو في صورة (٣) رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه من الناس أحد . وقد تسأل : وهل كان يزوره في صورته الملائكية ؟ والجواب : نعم غير أنه لم يفعل ذلك إلا مرتين :

إحداهما : عندما هبط عليه في غار حراء ، والثانية : بعد ثلاث سنين من هذه الزيارة وجاء عن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها : « أنه رآه على صورته الحقيقية

(١) تفسير ابن كثير : ٤٤٩/٤

(٢) سورة القيامة : ١٦ - ١٩

(٣) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١/٦٢٤٥

ليلة الإسراء والمعراج» ، واقرأ في هذا إن شئت قوله تعالى : « والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى » (١) .

وصفة القول : أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد تلقى القرآن من لدن جبريل ، وأنه كان يأتيه في صورته الحقيقية حيناً وفي غيرها أحيانا ، وقد تضافرت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام قد كان يجهد كثيرا وهو يوحى إليه فترتعد أعضاؤه . ويتصبب العرق منه (٢) ، ويشعر من يجاوره ببعض ما كان يعانيه .

روى زيد بن ثابت رضى الله عنه : « أن الوحي هبط على النبي صلوات الله عليه وكان فخذة على فخذة فكادت أن ترض (٣) أى أن تشل من شدة ثقل الملك » . وهذا أمر طبيعي فإن الفرق هائل بين طبيعة البشر وطبيعة الملك ، ولولا أن الله قارب بينهما بالنسبة لجبريل والنبي ما أمكن له صلوات الله عليه أن يواجهه

(١) سورة النجم : ١ - ٨

(٢) تفسير ابن كثير : ٧/٤

(٣) تفسير ابن كثير : البداية والنهاية ٢١/٣

ولا أن يتلقى عنه ، وفي هذا يقول الباريء جل وعز :
« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر
ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا
عليهم ما يلبسون » (١) .

تلقى الصحابة للقرآن :

وقد كان محمد عليه الصلاة والسلام يقرأ القرآن
كما كان يتلقاه عن الروح الأمين ، مرتلا مجوداً ، لا
يظهر ما ينبغي أن يضغم ولا يقصر ما يجب أن يمد ،
وقد تضافرت الروايات على أنه كان يقرأ على مكث (٢) ،
حتى إن السامع ليستطيع أن يعد ما يتلوه حرفاً بعد
حرف ، ولكي ينقل عنه صلوات الله عليه الكتاب العزيز
كما أنزل من غير نقص ولا زيادة فإنه كان يأمر بعض
أصحابه أن يقرأه عليه ، جاء في الحديث : أنه عليه
الصلاة والسلام دعا ابن مسعود يوماً وقال له : أقرأ
على (٣) يا ابن أم عبد قال : أقرأ عليك وعليك نزل؟
قال صلوات الله عليه : إني أحب أن أسمع من غيري ،
فقرأ ابن مسعود من أول سورة النساء حتى أكمل قوله
تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك

(١) سورة الأنعام : ٨ ، ٩

(٢) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١/٤٤٩

(٣) تفسير القرطبي : ١/١١

على هؤلاء شهيداً • يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً»^(١) فأشار إليه النبي أن يصمت فصمت ، ورفع وجهه فرأى الدموع تسيل من عيني^(٢) رسول الله ﷺ من فرط التأثر •

وقد نقل لنا حفاظ القرآن وقرأؤه الأول تلاوة النبي عليه الصلاة والسلام كما سمعوها منه ، ومن هؤلاء : عبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وغيرهم ممن سنتنا ولهم إن شاء الله •

وقد اختلف العلماء في رفع الصوت بالقرآن ، والتطريب فيه ، فذهب فريق الى كراهة ذلك^(٣) ، وأنه مخالف للقراءة المروية على النبي صلوات الله عليه ، وذهب آخر الى أنه لا مانع من ذلك ولا كراهة فيه ، بل هو مندوب إليه ، ومرغب في فعله ، ولهم على هذا أدلة أحدها :

قوله عليه الصلاة والسلام : «زينوا القرآن بأصواتكم»

(١) سورة النساء : ٤١ ، ٤٢

(٢) تفسير القرطبي : ١١/١

(٣) تفسير ابن كثير : ٣٥/٤

وقوله : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (١) ، وروى عن أبى موسى الأشعري رضى الله عنه أنه قال للنبي صلوات الله عليه ، وقد رآه يستمع إليه : « لو كنت أعلم أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً (٢) . وجاء في روايات أخرى ، أنه عليه الصلاة والسلام قرأ القرآن يوم الفتح وهو يسير فرجع فيه (٣) ، أضف إلى هذا كله ، ما كان يوجهه من الثناء إلى قراءة ابن مسعود ، وسالم ، وأبى موسى .

وقد رجح الإمام القرطبي رأى الفريق الأول ، وتأول قوله عليه الصلاة والسلام : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : إنه من المقلوب والمقصود : زينوا أصواتكم بالقرآن ، وفسر تغنى في قوله عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » بمعنى استغنى (٤) .

والذى تطمئن إليه النفس ، ويستريح إليه القلب ، أن القارىء اذا التزم أحكام التجويد وقواعد الترتيل ، فإنه لا غبار عليه ، سواء رجع أو لم يرجع ، أما الذين

(١) تفسير القرطبي : ٩/١

(٢) تفسير ابن كثير : ٣٥/٤

(٣) تفسير القرطبي : ٩/١

(٤) تفسير القرطبي : ٩/١ ، ١٠

يلحنون القرآن وينغمونه ويسلكون في تلاوتهم له مسلك
القيان من الجوارى ، والمغنين من الرجال ، فهؤلاء
يحرفون الكلم عن مواضعه ، لأنهم يقصرون الممدود ،
ويمدون المقصور ، ولا يعنيه التزام ما ملأ به العلماء
كتبهم من قواعد التجويد وأحكامه ، بقدر ما تعنيهم
النعمة المشجية والنبرة المؤثرة ، وقد ذم النبي عليه
الصلاة والسلام ، هؤلاء المغنين ، وذم من يستمعون
إليهم ، ويثنى عليهم ، ويشجع طريقتهم ، وأعلن أن
القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، والأدهى من هذا والأمر ،
هؤلاء الذين يتحلقون حولهم ويرفعون أصواتهم
معجبين مستحسنين طالبين من القارىء إعادة ما يقرأ ،
لا ، لأن ما سمعوه قد دخل إلى أعماق قلوبهم ، ولكن
لأنه قد شنف آذانهم ، وأثار عواطفهم ومشاعرهم ، وقد
نسى هؤلاء الناس ، أن للاستماع الى القرآن آدابا يجب
أن تراعى ، وتقاليد ينبغى أن تطبق ، منها ، خشوع
القلب ، وحضور العقل ، والانصراف عن حوائج الدنيا ،
وعدم التفكير فى غير ما يتلى ، وفى هذا يقول الله
سبحانه : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
لعلكم ترحمون » . ويصف أقواما من أهل الكتاب وهم
يتلون هذا الذكر الحكيم ، فيقول : « قل آمنوا به أو لا

تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم
يخرون للأذقان سجدا • ويقولون سبحان ربنا إن كان
وعد ربنا لمفعولا • ويخرون للأذقان ليكون ويزيدهم
خشوعا» (١) •

ويصف لنا حال الجن أثناء سماعهم للقرآن فيقول:
« وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما
حضره قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم
منذرين • قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد
موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق
مستقيم • يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر
لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم » (٢) • وينعى
على الناس جمود قلوبهم وتحجر أفئدتهم وهم يقرءون
القرآن فيقول: « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت
خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها
للناس لعلهم يتفكرون » (٣) •

وصفة القول : أن للقرآن أحكاما يجب أن يلتزمها
القارئ وأدبا ينبغى أن يراعيها التالى والسامع ، فمن
خالف هذه الأحكام وتجاوز هذه الآداب كان القرآن
نقمة عليه وشاهدا على معصيته •

(١) سورة الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩

(٢) سورة الاحقاف : ٢٩ - ٣١

(٣) سورة الحشر : ٢١

منزلة قارئ القرآن :

وعلى كل حال فإن النبي عليه الصلاة والسلام ، قد كان اذا غادره الوحي ، قرأ ما تلقاه عنه في نفسه ، وأقرأه أصحابه ، وكان هؤلاء يقتفون أثره ، وينهجون نهجه ، ويقرءون مثل قراءته ، وكيف لا يفعلون ، وقد أخبرهم صلوات الله وسلامه عليه ، أن الله تعالى يطرى قارئ القرآن ويدينه ، ويجزل الأجر له ، ويضع تاج الكرامة على رأسه يوم القيامة ، ويقول له والخلق كلهم شهود : « اقرأ وارق فإن منزلتك عند آخر ما قرأت » (١) . واقرءوا إن شئتم قوله عليه الصلاة والسلام : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » (٢) . وقوله صلوات الله عليه : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن ، مثل الريحانة ، ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل

(١) تفسير القرطبي : ٧/١

(٢) تفسير ابن كثير : ٥/٤

الفاجر الذي لا يقرأ القرآن ، مثل الحنظلة لا ريح لها ،
وطعمها مر « (١) .

وفي الاجتماع لتلاوة القرآن وتدارسه ، يقول المصطفى
صلوات الله عليه (٢) : « ما اجتمع قوم في بيت من
بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت
عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ،
وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن أبطأ به عمله ، لم يسرع
به نسبه » . وفيما أعد لهذه الصفوة الممتازة من
الثواب العظيم ، والمقام الكريم ، قال رسول الله ﷺ :
« من أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ، ومن
أعطى ثلث القرآن فقد أعطى ثلث النبوة ، ومن قرأ
القرآن كله فقد أعطى النبوة كلها ، غير انه لا يوحى
إليه ، ويقال له يوم القيامة : اقرأ وارق ، فيقرأ ويصعد
درجة بعد درجة ، حتى ينتهي ما معه من القرآن ، ثم
يقال له : اقبض فيقبض ، ثم يقال له : أتدرى ما في
يدك ؟ فإذا في يده اليمنى الخلد ، وفي اليسرى
النعيم » (٣) .

(١) تفسير القرطبي : ٥/١ ، الامام النووي : رياض الصالحين
ص ٣٠٢ دار الحديث - القاهرة .

(٢) النووي : رياض الصالحين ص ٣٠٨

(٣) تفسير القرطبي : ٧/١

ولا خلاف بين الرواة في أن قراء القرآن وحفاظه ،
قد كانوا هم الصفوة الممتازة في المجتمع المسلم ، أيام
النبي عليه الصلاة والسلام ، وأيام الراشدين من بعده ،
فهم الذين يؤمنون الناس في الصلاة ، وهم الذين يفتونهم
في الدين ، وهم الذين يقضون بينهم ، إذا تخاصموا
وهم الذين يعلمونهم أحكام الإسلام ، ويعرفونهم الحلال
والحرام . وقد روى أن الرجل كان إذا حفظ سورة
البقرة وآل عمران لا تكاد الأبصار تنظر إلى وجوههم
هيبة لهم ، وإجلالا لقدرهم (١) ، وكيف لا يكون
القرءاء والحفاظ كذلك ، وهم أهل الله المنقطعون له ،
وحزبه المنصرفون إليه وشهود مآدبته التي دعا إليها
الصالحين من خلقه ، والمخلصين من عباده .

الأحرف واللهجات التي نزل عليها القرآن :

وقد يقال كيف كان العرب يقرءون القرآن في حياة
النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف كانوا يفهمون
مبادئه وتعاليمه ، وهو قد نزل على لغة قريش ، وهم
كانوا ذوى لهجات شتى ، وألسنة متمايزة ، وكان
بعضهم لا يفهم لهجات بعض ، ولا يعقل ما يجرى على
لسانه ، فاليمنى يجهل كلام المضرى ، وساكن الشمال

(١) صحيح البخاري ، باب في فضل القرآن ، ص ١٠٠

(١) الزركشى : البرهان في علوم القرآن ١/٢٦٥

لا يفقه حديث ساكن الجنوب ، بل إن القبائل التي تنتمي الى أصل واحد ، قد لا يعرف بعضها بعض ما يجرى على لسان البعض الآخر ؟ والجواب : أننا لا نسلم أن القرآن قد نزل على لغة قريش وحدها ، وإن كانت هذه اللغة هي أفصح لغات العرب ، وأغزرها مادة ، وأكثرها شيوعا ، في القبائل والبطون ، لأنها لغة سدنة البيت الحرام وحماته والقاطنين حوله ، ولأن عرب الشمال والجنوب على السواء قد كانوا يحجون إلى هذا البيت ، ويؤدون المناسك والشعائر حوله .

وإنما نزل هذا الكتاب الخالد على هذه اللغة وغيرها من شتى اللغات التي كانت موجودة ومعروفة في شبه الجزيرة ، وقد كانت هذه اللغات سبعا ، والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ، هو قول النبي عليه الصلاة والسلام : « نزل القرآن على سبعة أحرف » (١) . وجاء في روايات كثيرة أنه صلوات الله عليه ، قد سأل الله ألا ينزل القرآن على حرف واحد ، وما زال يستزيده حتى أجابه ، إلى أنه سوف ينزله على سبعة (٢) .

(١) تفسير ابن كثير : ١١٠٦/٤ : ١١٠٦/٤

(٢) تفسير القرطبي : ٣٦/١ : ٣٦/١

وقد أدى هذا الاختلاف الى شجار ، ونزاع بين الصحابة ، فقد كان الواحد منهم اذا سمع آخر يقرأ القرآن على غير ما أقرأه النبي عليه الصلاة والسلام إياه خاصمه ، وأخذته إلى حيث كان يجلس النبي عليه الصلاة والسلام وشكاه إليه ، وكان النبي ﷺ يسمع من كل منهما ويصوبه ويقول : هكذا نزل من فوق سبع سموات ، ويسمعه الحديث « نزل القرآن على سبعة أحرف » (١) .

غير أن قراءة القرآن على هذه الأحرف السبعة ، أو على هذه اللهجات السبع ، قد كانت ضرورة اقتضاها تباعد القبائل العربية بعضها عن بعض ، وعدم فهم بعضها لهجات بعض ، وقد كان هذا قبل وجود الإسلام ، فلما انبثق هذا الدين في شبه الجزيرة ، وانتشرت أقباسه في بواديها وحواضرها ، ودخل الناس فيه أفراداً وجماعات أخذت لغة قريش ، تشيع في القبائل وتنتشر في البطون ، وصار يفهمها كل عربي ، لا فرق في ذلك بين بدوى وحضرى ، وهنا زالت الضرورة وانتفت الحاجة إلى تعدد القراءات ، وراح الناس يؤثرون قراءة النبي على غيرها ويفضلونها (٢) على

(١) الالوسى : روح المعانى : ٢٠/١ دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨م

(٢) تفسير القرطبي : ٣٧/١

ما سواها ، ولكن هل تم هذا في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وقبل صعوده إلى الرفيق الأعلى ، أم أنه تأخر حتى تم امتزاج العرب واختلاطهم ، وقد كان هذا بعد أن زحف عشرات الألوف من الرجال والنساء من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الأمتين الفارسية والرومانية ، ويخيل إلى أن اجتماع المسلمين على حرف واحد ، أو لهجة واحدة ، وهى لهجة قريش ، إنما كان فى خلافة ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، فقد جمع القرآن فى مصحف واحد ، وبعث إلى كل إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية نسخة منه ، وأمر فأحرق ما سواه (١) .

والسر فى إثارة لغة قريش على غيرها أنها لغة النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه من أبناء هذه القبيلة ، ولأن هذه اللغة هى أكثر اللغات شيوعاً فى بلاد العرب ، وألطفها عبارة ، وأوسعها مادة ، أضف الى هذا وذاك أن العرب كافة قد اعتادوا نطقها وسماعها فى مواسم الحج والعمرة .

وقد يقال : وما معنى الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن ؟ والجواب : أن العلماء قد اختلفوا فى تفسيرها حتى بلغت أوجه هذا الاختلاف خمسة وثلاثين

(١) تفسير ابن كثير ١٠/٤

وجها (١) ، ولما كنا لا نستطيع ذكر هذه الأوجه جميعا في هذه السطور فقد رأينا أن نقتصر منها على ثلاثة :

أحدها: أن هذه الأحرف هي المعانى المتقاربة (٢)، وذلك مثل هلم ، وأقبل ، وتعال . روى ورقاء عن نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ : «للذين آمنوا انظرونا» للذين آمنوا امهلونا، وكان يقرأ : « كلما أضاء لهم مشوا فيه » مروا فيه ، سعوا فيه ، وهذه الأحرف في هذا الرأى ، ليست تختلف في جلال ولا حرام . وقد اختار هذا الوجه سفيان بن عيينة ، والطبرى ، والطحاوى ، وغيرهم . واستشهدوا له بحديث أبى بكره قال : « جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : إقرأ على حرف ، فقال ميكائيل : استزده فقال : إقرأ على حرفين ، فقال ميكائيل استزده حتى بلغ إلى سبعة أحرف فقال : « إقرأ فكل شاف كاف » (٣) .

ثانيهما : أن هه الأحرف السبعة هي لغات العرب

(١) تفسير ابن كثير ٣٦/٤ ، السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن

٤٧/١

(٢) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ٤٨/١

(٣) تفسير الطبرى : ١٣/١ ، ١٥

السبع ، أو لغات قبائلهم السبع (١) ، وعلى هذا الأساس يكون القرآن قد نزل على لهجة قريش ، ولهجة كنانة ، ولهجة اليمن ، إلى آخره .

ومن العلماء من قصر هذه الأحرف أو هذه اللهجات على مضر ، وقالوا : إن القرآن قد نزل على لغة قريش ، ولغة كنانة ، ولغة أسد ، ولغة هذيل ، ولغة تميم ، ولغة قيس . ودليلهم على هذا قول عثمان رضى الله عنه : إن هذا القرآن قد نزل على لغة مضر ، وهو كلام لا أساس له ، لأن في القرآن ما هو على حرف مضر ، وما هو على حرف اليمن ، وقد جاء في أكثر من رواية : أن كتاب الله تعالى قد نزل على لغة قريش ، والمراد أكثره وليس كله . ومن ذلك استعمال لفظ « فطر » على معنى « ابتداء » ولفظ « فتح » على معنى « حكم » .
اختصما رجلان عند ابن عباس على بئر فقال أحدهما إنها بئرى وإنى فطرتها ، قال ابن عباس : فما فهمت معنى قوله تعالى « فاطر السموات والأرض » إلا بعد ما سمعت هذه المحاورة (٢) . وكذلك ما سمعه حبر الأمة من إحدى الأعرابيات ، وهى تخاصم زوجها :
تعال أفاتحك ، أى أحاكمك .

(١) تفسير القرطبي : ٣٧/١ .

(٢) تفسير ابن كثير : ٢٢/١ .

وصفوة القول : أن الأحرف السبعة في الحديث هي لغات العرب السبع ، أو لهجات قبائلهم السبع ، وليس المراد منها لهجات مضر وحدها ، لأن القرآن قد تضمن ألفاظا بعضها مما ينسب إلى مضر ، وبعضها مما ينسب إلى اليمن ، ثم إن القرآن نفسه قد ذكر أنه قرآن عربي ، ولم يقل إنه قرآن قريشى أو مضرى .

وثالثها : أن المراد بالأحرف في الحديث ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء ، وحكى نحوه القاضى ابن الطيب قال : تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة ، فوجدتها سبعا (١) ، منها ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته مثل : «هن أطهر لكم» «وأطهر» ، « ويضيق صدرى» ويضيق . ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف مثل قوله «ننشزها» وننشزها . ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه « كالعهن المنفوش » وكالصوف المنفوش . ومنها ما تتغير صورته ومعناه مثل : « وطلع منضود » ، « وطلع منضود » . ومنها بالتقديم والتأخير كقوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق» وجاءت سكرة الحق بالموت . ومنها بالزيادة والنقصان

(١) تفسير القرطبي : ٣٩/١ ، السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن

مثل قوله : تسع وتسعون نعجة أنثى ، وقوله : وأما الغلام فكان كافرا ، وكان أبواه مؤمنين ، وقوله : فإن الله من بعد إكراههن لهن غفور رحيم .

وقد يقال : والقراءات السبع ما مكانها في هذا المجال ؟ والجواب : انها متفرعة من لغة قريش ، وهى اللغة التى نزل عليها أكثر القرآن ، وليست من الأحرف التى جاء ذكرها فى الحديث (١) وعلى هذا الأساس فلا يتعارض اجتماع المسلمين على لهجة واحدة ، وترك ما عداها وهذه القراءات المتواترة عن حمزة والكسائى وأبى عمرو وغيرهم .

والحاصل أن العرب كافة ما كانوا ليقرعوا كتاب الله ويعرفوا أهدافه وأحكامه إلا لأن الله تعالى قد أنزله على سبعة أحرف ، فإنهم كانوا ذوى لهجات شتى ، وألسنة متميزة ، ولم يكن بعضهم يفهم كلام بعض ، فلما جاء الإسلام صهر هذه الألسن واللهجات فى بوتقة واحدة ، وجمع القبائل كلها على لهجة واحدة ، هى لهجة قريش ، ولما كانت العلة التى من أجلها كان العرب يقرعون القرآن على سبعة أحرف وقد زالت ولم يعد لها وجود ، فقد وجب الاجتماع على قراءة النبى عليه

(١) تفسير القرطبى : ٤٠/١ ، تفسير ابن كثير ٢٣/٤

الصلاة والسلام، وترك ما عداها وهو ما تحقق في خلافة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه .

المنهج النبوى للمحافظة على القرآن :

ولم يكن الهدف من نزول القرآن على سبعة أحرف هو تيسير قراءته وحسب ، وإنما كان لذلك هدف آخر أكبر وأخطر ، وهو حفظ هذا الكتاب وبقاؤه بعيدا عن التبديل والتعديل والحذف والإضافة ، ما بزغ نجم وما زرّ في السماء شارق ، والسبب في هذا ، هو أن القرآن معجزة الإسلام ، وآية صدق النبي عليه الصلاة والسلام ، وحيث إن زمان رسالة محمد ﷺ هو ما بين نزول الوحي عليه ، وقيام الساعة ، فقد وجب أن يبقى هذا الكتاب مرافقا لهذه الرسالة ، ومدافعا عنها ، ومتحديا لكل من ينكرها ، أو يشك فيها ، أن يأتي بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة واحدة من مثله (١) ، معلنا دائما وأبداً قوله تعالى : « لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢) . فبقاء القرآن ودوامه صافيا نقيا كما أنزل ، ضرورى لبقاء الاسلام ودوامه حتى تبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

(١) تفسير القرطبي : ٦٧/١

(٢) سورة الإسراء : ٨٨

وقد قرر المولى سبحانه هذا المعنى في قوله عز وجل :
« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) . وقد
يقال : ولماذا انفرد القرآن وحده بالبقاء والدوام ، ولم
تشاركه الكتب السماوية الأخرى في ذلك ؟ والجواب :
أن كل نبي كان يبعث إلى قومه خاصة ، وأن محمداً
صلوات الله وسلامه عليه قد بعث إلى الناس كافة ،
وبعبارة أخرى أوضح وأبين : أن الأنبياء السابقين على
محمد لم تكن رسائلهم عامة ، تنتظم الإنس والجن ،
والأسود ، والأحمر ، وإنما كانت مقصورة على فترة
بعينها ، وعلى أناس بأنفسهم ، وعلى العكس من ذلك
تماماً كانت رسالة محمد ، فهي رسالة الله تعالى إلى
الإنس والجن ، والعرب ، والعجم ، منذ نزل عليه
الروح الأمين ، حتى يقوم الناس لرب العالمين (٢) ،
وليس من المعقول ولا من المقبول أن تتساوى المعجزة
التي أرادها الله لتأييد الرسالة الخاصة ، وتلك التي
أرادها لتأييد الرسالة العامة .

ومن هنا كانت معجزات الأنبياء السابقين مقصورة
على أقوامهم ، تعيش ما عاشوا ، وتموت إذا ماتوا ،
ويسهل بعد تولى أزمانها انكارها وعدم الايمان بها ،

(١) سورة الحجر : ٩

(٢) تفسير القرطبي ١/٦٣

أما معجزة محمد ﷺ ، فهي دائمة وباقية ، ومن شك في صدق رسالته فليعارضها اذا استطاع ، وليأتى بمثلها اذا قدر . « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (١) . وقد يقال : اذا كان القرآن ضروريا للإسلام ، ودليلا دائما على صدقه ، وأنه منزل على رسول الله ﷺ من قبل ربه ، فهل وضع صلوات الله وسلامه عليه خطة لبقائه ، وعدم تسرب الزيف والوضع إليه ؟ .

والجواب : نعم : وتبدو لنا هذه الخطة في نقاط :

إحداها : دعوة النبي عليه الصلاة والسلام الأمة كلها إلى تلاوته ، وإخباره أن « من يقرأ حرفا من القرآن كانت له حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن أقول ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » (٢) ، ولا شك فيما لهذا الحديث وأمثاله ، من الأثر في الإقبال على قراءة القرآن وتكريس الوقت والجهد له .

(١) سورة البقرة : ٢٣ - ٢٤

(٢) النووى : رياض الصالحين ص ٣٠٣

وثانيتها : تكريم قرءاء القرآن في الدنيا ، وتفضيلهم في تقليد الوظائف والمناصب ، وتقديمهم على غيرهم في مجالس العلم ، ومجامع المعرفة ، وقد وردت روايات تدل على أن التفاضل والتمايز في المجتمع المسلم ، قد كان على أساس حفظ القرآن ، فحافظ الآيتين ، أفضل من حافظ الآية الواحدة ، وحافظ السورة ، أفضل من حافظ الآيات ، وهكذا . وقد روى أن الرجل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، كان اذا حفظ البقرة وآل عمران لم ترتفع إليه الأعناق هيبة له ، وإجلالا لقدره (١) .

وثالثها : جعل قراءة القرآن ركنا من أركان الصلاة المفروضة ، في كل من الركعتين الأولى والثانية في الصلوات الخمس ، وجعل هذه القراءة جهرية في ثلاث منها ، وهى : الفجر ، والمغرب ، والعشاء . وذلك حتى يسمع القرآن من لا تمكنه ظروفه من تلاوته في بيته أو في عمله .

ولا جدال في أن هذه القراءة الجهرية ، في هذه الصلوات المفروضة الثلاث ، تجعل الجانب الأكبر من

(١) الزركشى : البرهان ٢٦٥/١

الناس ، يحفظون الكثير من آى القرآن وسوره ، لاسيما وأن الإقبال على الصلاة فى هذا الزمن ، قد كان عظيما . أضف إلى هذه الصلوات الثلاث صلاة رابعة ، يجهر فيها بالقرآن أيضا ، وتحضرها الأمة كلها إلا أصحاب الأعدار ، وهى صلاة الجمعة ، وقد شرعت أول ما شرعت فى المدينة .

ورابعها : قراءة القرآن كله فى صلاة القيام وهى التى سنها رسول الله ﷺ فى ليالى رمضان ، وقال فىمن يؤديها : « من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (١) . وأنت خير بأن شهر رمضان ، سوق عبادة ، وموسم ذكر وشكر ، وأن الناس يكثرون فيه من التردد على المساجد ، وأداء الصلوات فيها ، ولاسيما صلاة التراويح التى يختار لإمامة الناس فيها أرباب الأصوات الحسنة ، والقراءة الطرية النقية ، فإذا أضفت الى هذا كله دعوة الله عباده إلى التهجد بالقرآن ، والتدبر له ، والاستنباط لتعاليمه ، وأحكامه ، مع ما وهب الله العرب من قوة فى الحفظ ، وقلة للنسيان ، وحب للقرآن ، تبين لك أن الأمة كلها قد كانت تحفظ القرآن فى أيام النبى عليه الصلاة والسلام ، حتى إن القارىء اذا نسى منه حرفا ، أو وضع لفظا

(١) النووى : رياض الصالين ص ٣٤٠

مكان لفظ ، وجد فيمن يسمعونه من يسدده ويرشده ،
وينبئه إلى خطئه . وليس معنى هذا أن كل فرد من
أفراد الأمة كان يحفظ القرآن في عهد النبي عليه الصلاة
والسلام ، بل إن المعنى أن كل فرد ، قد كان يحفظ منه
شيئاً ، بحيث إذا أخطأ شخص ، وجد من ينبئه ، بعكس
اليهود والنصارى فإن قارئ التوراة أو الإنجيل ،
لو تجاوز إصحاحاً كاملاً ، فإن أحداً من مستمعيه لا
يدري عنه شيئاً . هذا هو بعض ما بذله النبي صلوات
الله عليه في إيداع القرآن صدور أمته .

أما الكتابة والتدوين فإن النبي عليه الصلاة والسلام ،
قد بذل فيهما الكثير كذلك ، فقد حض أصحابه على
كتابة القرآن ، فكانوا يكتبونه في مكة ، وكانوا يكتبونه
في المدينة ، وقد روى أن عمر بن الخطاب لما أراد الله
له الإسلام ، أتى بيت أخته فاطمة فوجد عندها صحيفة
كان خباب يقرئها وزوجها منها ، ولما أراد أن يتناولها
ويقرأ ما فيها أبت عليه أخته أن يمسه ، حتى يغتسل
لأنه كافر (١) ، والكافر نجس لا يتطهر من الجنابة ،
وقرأت قوله تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب
مكون . لا يمسه إلا المطهرون » (٢) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٧٩ ، ٨٠ ، دار الفكر بيروت
سنة ١٩٧٨ م .

(٢) سورة الواقعة : ٧٧ - ٧٩

ولما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى يثرب ،
اتخذ له كتابا يكتبون القرآن (١) بين يديه ، وقد كان
من هؤلاء من هو من مكة ، وكان منهم من هو من أهل
المدينة ، ولم يكونوا جميعاً ممن لا يعرفون غير العربية
وإنما كان بعضهم كذلك ، وكان البعض الآخر ، يعرف
العبرية والسريانية إلى آخره ، وقد أحصى بعضهم عدد
هؤلاء الكتاب فكانوا نحواً من أربعين ولكي لا يتوزع
اهتمام المسلمين بين القرآن والسنة ، ولكي لا يختلط
هذا بذلك ، فإنه عليه الصلاة والسلام ، قد نهى أصحابه
عن كتابة الحديث وقال : « لا تكتبوا عنى شيئاً ، ومن
كتب عنى غير القرآن فليمحاه ، وأدوا عنى ولا حرج
ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار (٢) » .

ولأنه عليه الصلاة والسلام قد بعث في أمة أمية
لا تقرأ ولا تكتب ، فإنه قد بذل جهوداً كثيرة ، في تعليم
هذه الأمة ، القراءة والكتابة ، وسجل القرآن نفسه ،
أن هذا العمل جزء من رسالته ، وأقرأ في هذا قوله
تعالى على لسان إبراهيم ، واسماعيل : « ربنا وابعث
فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب

(١) الزركشي : البرهان ٢٣٨/١

(٢) تفسير القرطبي : ٧٠/١ ، تفسير ابن كثير ١٠/٤

والحكمة ويزكيهم» (١) . وقوله سبحانه وتعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (٢) . وواضح أن المراد من الكتاب فى هاتين الآيتين ، هو الكتابة . فإن قلت : وكيف يستطيع النبى عليه الصلاة والسلام ، تعليم أمته القراءة ، والكتابة ، وهو نفسه أمى ، وفاقد الشىء لا يعطيه ؟ قلت : ان فى إمكانه أن يكلف من يعرف القراءة والكتابة من أمته بتعليمها لمن لا يعرف .

فإن قلت : ولماذا لم يبدأ بنفسه ؟ قلت : لأن الله أرادَه كذلك حتى لا تبقى حجة لمن يدعى أنه يردد ما يتلقاه عن غيره شفاهاً أو من كتاب يقرأه (٣) .

وأنت خبير بأنه قد أعفى بعض الأسرى من الفدية ، على أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة (٤) . وقد تضافرت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام لم يفارق هذه الدنيا ، حتى كان القرآن محفوظاً فى الصدور ، ومكتوباً على اللخاف ، والأكتاف ، وغيرهما من الأدوات المعروفة آنذاك .

(١) سورة البقرة : ١٢٩

(٢) سورة الجمعة : ٢

(٣) تفسير القرطبى : ٦٥/١

(٤) المقرئى : امتاع الأسماع ١.١/١ مطبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر سنة ١٩٤١ م تحقيق : محمود محمد شاكر .

(أ) الجمع الأول للقرآن :-

وقد ارتد أكثر العرب إثر وفاته (١) صلوات الله عليه فادعى بعضهم النبوة ، وامتنع البعض الآخر عن أداء الزكاة ، واشتبك أبو بكر رضى الله عنه مع أولئك وهؤلاء ، ودارت بينه وبينهم معارك كثيرة ، وكانت معركة اليمامة ، من أهم هذه المعارك ، إن لم تكن أهمها جميعا ، فقد قتل فيها الألوف من المسلمين ، والمشركين على السواء ، وبلغ من قتل من الحفاظ وحدهم ، سبعمائة ، وهو عدد أخاف قلب الفاروق ، وأرعب فؤاده ، وجعله يأتى أبا بكر ، ويقول له : إن القتل قد استحر بالحفاظ فى اليمامة ، وإنى أخشى أن يقتل من بقى منهم فى المعارك الأخرى ، فيذهب بذهابهم القرآن (٢) ، فقال أبو بكر رضى الله عنه وماذا ترى أن أفعل ؟ . قال : تجمع القرآن فى مصحف حتى يظل مرجعا يرجع الناس اليه . فقال أبو بكر : وكيف أصنع شيئا لم يصنعه رسول الله ﷺ ، فقال عمر : هو والله خير (٣) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٠٤

(٢) تفسير القرطبي : ٤٣/١

(٣) تفسير ابن كثير : ٨/٤

ولما استراح الصديق إلى اقتراح عمر ، وتبين له صوابه ، استدعى زيد بن ثابت ، وكان ممن يكتبون الوحي بين يدي النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقال له : يا زيد إنك شاب عاقل ، وإنما لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، وقد أخبرني عمر أن القتل قد استحر بالحفاظ في اليمامة ، وإنى أخشى أن يذهب القرآن بذهابهم ، فقم واجمع القرآن من الرقاع والأكتاف ، وصدور الرجال ، قال زيد : فوالله لو كلفني رفع جبل من مكانه ، ما كان أشد على من تكلفى بهذا العمل ، وقد فرض زيد المهمة وقال : كيف أصنع شيئاً لم يصنعه رسول الله ؟ وما زال أبو بكر يجادله ويحاوره حتى انشرح صدره ، واستراح قلبه ، إلى ما استراح إليه قلب الصديق والفراروق .

وقام زيد رضى الله عنه فجمع القرآن كله ، مما كان مكتوباً عليه ، ومن صدور حافظيه (١) ، غير أنه افتقد آيتين كان يسمعهما من النبي صلوات الله عليه وهما : قوله تعالى في آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو

(١) تفسير القرطبي : ٤٣/١ ، الألوسى : روح المعانى ٢٢/١

عليه توكلت وهو رب العرش العظيم « (١) . وقد
وجد زيد هاتين الآيتين عند أبي خزيمة (٢) أو خزيمة
الأنصاري ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد جعل
شهادته بشهادة رجلين (٣) . ومن العلماء من يرى أن
هاتين الآيتين ، قد افتقدهما زيد في الجمع الثاني
للقرآن ، والذي كان في عهد عثمان ، وأنه فقد في هذا
الجمع آية من سورة الأحزاب (٤) وهي قوله تعالى :
« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم
من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » (٥) .
وقد وجد هذه الآية عند أبي خزيمة أو خزيمة الأنصاري ،
وسواء أصح هذا الرأي أو ذاك ، فإن زيد بن ثابت قد
أدى المهمة التي ألقيت على كاهله خير أداء . فجمع
القرآن كله ، وأودعه بيت أبي بكر ، فلما مات انتقل
إلى بيت عمر ، فلما استشهد حفظ عند أم المؤمنين
حفصة رضي الله عنها (٦) .

ويبدو لي أن الصحف التي كتبها زيد بن ثابت ، لم

(١) سورة التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩

(٢) تفسير ابن كثير : ٨٤/٤

(٣) تفسير القرطبي : ٤٤/١ ، الألبوسي : روح المعاني ٢٢/١

(٤) نفس المرجع السابق ٤٤/١ ، الألبوسي : روح المعاني ٢٣/١

(٥) سورة الأحزاب : ٢٣

(٦) تفسير ابن كثير : ٨/٤ ، ١٠

تكن مقصورة على حرف واحد ، ولا على لهجة واحدة من اللهجات السبع الرئيسية في لغة العرب ، وإنما كانت تشمل هذه الأحرف واللهجات التي نزل عليها القرآن وذلك لسببين :

أحدهما : أن المهمة التي ألقيت على كاهل زيد بن ثابت كانت جمع القرآن ، فلو اقتصر على حرف واحد لما كان جامعاً له .

ثانيهما : أن الناس لم يكونوا قد اختلفوا حول قراءة القرآن الاختلاف الذي يتوقع منه الشر وتتوجس منه الفتنة .

(ب) الجمع الثاني للقرآن :

وسواء أصبح هذا التوقع أو لم يصح ، فإن الناس لما غادروا شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الفرس والروم ووضعوا أيديهم عليهما ، وتفرق أصحاب رسول الله ﷺ في الأمصار ، كان كل فريق يقرأ القرآن حسب لهجته ، ووفقاً لما تلقاه من أفواه أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه ممن كانوا ينتسبون إلى هذا الفريق نفسه ، ويتكلمون بلهجته ، فإذا اجتمع أفراد من هذا الفريق ، وآخرون من غيره ، وقرءوا القرآن ، اختلفوا وتنازعوا ،

وأنكر كل قراءة صاحبه وأكفره ، وقد شهد حذيفة بن اليمان رضى الله عنه وهو فى غزوة أرمينية (١) هذا النزاع ، بل هذا الصراع فعظم همه ، واشتد غمه ، ولم يكد يدخل المدينة حتى أتى عثمان رضى الله عنه ، قبل أن يأتى بيته وقال له : يا أمير المؤمنين أدرك الأمة قبل أن تتفرق حول القرآن كما تفرق أهل الكتاب حول التوراة والإنجيل ، قال عثمان : وكيف ذاك ؟ قال : لقد رأيت الناس فى أرمينية يختلفون حول قراءة القرآن ، ويقول هذا قراءتى خير من قراءتك ، ويقول ذاك : بل قراءتى خير من قراءتك ، ويكفر بعضهم بعضا فانزعج ذو النورين رضى الله عنه وخاف على الأمة هذه الفتنة ، وخرج إلى المسجد فاستشار المهاجرين والأنصار (٢) وقال : ما ترون فى المصاحف ، فإن الناس قد اختلفوا فى القراءة حتى إن الرجل ليقول : إن قراءتى خير من قراءتك ، وقراءتى أفضل من قراءتك ، وهذا شبيه بالكفر . قالوا : ما رأى عندك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأى عندى أن يجتمع الناس على قراءة ، فإنكم اذا اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا . قالوا : رأى رأيك يا أمير المؤمنين ، وعلى الفور أرسل عثمان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر ،

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٠ ، الألوسى : روح المعانى ١/٢٣

(٢) تفسير القرطبى : ١/٤٥

وطلب منها أن ترسل إليه الصحف التي لديها حتى ينسخها ويعيدها إليها . ولم تتوان حفصة رضى الله عنها في إجابة الخليفة إلى ما يريد (١) ، فاستدعى زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأمرهم أن ينسخوا هذه الصحف في المصاحف ، وقال للقرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سوى ذلك من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق (٢) . ولا جدال في أن هذا العمل من عثمان رضى الله عنه قد كان عظيما ، فقد أجهز على فتنة لو أنها استشرت لغرقت الأمة ، ومزقت شملها ، وأتاحت الفرصة أمام شائئها للنيل من الإسلام ومعجزته الباقية .

وإن تعجب فعجب أن يأخذ أعداء عثمان عليه هذا العمل في عصره وينسبون إليه من أجله مخالفة السنة ، ومن هؤلاء صحابة كبار منهم عبد الله بن مسعود ،

(١) تفسير ابن كثير : ١٠/٤

(٢) تفسير القرطبي : ٤٥/١

الذى أغضبه أن يحرق مصحفه ضمن ما أحرق من المصاحف الأخرى (١) ، ويبدو لى أن إنكار هذا الصحابي الجليل على عثمان جمعه الناس على مصحف واحد ، قد كان سببه أنه تخطاه ، ولم يشركه في نسخ الصحف التى كانت مودعة عند حفصة ، وإيثار زيد بن ثابت عليه . والواقع أن عثمان ليس هو الذى قدم زيد لجمع القرآن ونسخه وإنما الذى فعل ذلك ، هو الصديق رضى الله عنه ، وهو كذلك الذى آثر ابن ثابت على ابن مسعود وغيره ، ولعل السر في هذا هو أن زيد بن ثابت قد كان أكثر ملازمة للنبي عليه الصلاة والسلام في كتابة الوحي (٢) ، وكان أغزر منه ثقافة ، فقد كان يعرف العربية والعبرية والسريانية (٣) ، بينما كان ابن مسعود لا يعرف غير العربية ، وأسباب أخرى لا شك أنها قد كانت في نفس الصديق عندما أوكل هذه المهمة الخطيرة إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه .

وقد يقال : وما الفرق بين جمع أبى بكر للقرآن وجمع عثمان ؟ . والجواب : أن أبى بكر قد جمع القرآن من الرقاع واللخاف والأكتاف والعسب وصدور

(١) تفسير ابن كثير : ١١/٤

(٢) تفسير القرطبي : ٤٦/١

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣٥٨/٢ دار صادر بيروت سنة

الرجال ، وسجله في صحف ، أما عثمان فإنه نسخ هذه
الصحف وجعلها في مصحف ، وأرسل الى كل إقليم
واحداً منها . وفرق ثان وهو أن جمع أبي بكر قد كان
على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن ، وأن
عثمان قد نسخ هذا الكتاب ولكن على حرف واحد (١) ،
ويمكننا أن نقول إن عثمان قد جمع المسلمين على
قراءة واحدة ومنع ما سواها ، وعلى هذا الأساس ،
قضى على التنازع والتشاجر الذي كان بين بعض المسلمين
وبعض حول التلاوة .

تبقى القراءات السبع وهل تنتمي الى لهجة قريش
أم الى اللهجات السبع الأنفة الذكر ، وإلى الوجه الأول
ذهب الإمام القرطبي في تفسيره (٢) .

وصفوة القول : أن القرآن قد جمع مرتين : إحداهما
في خلافة أبي بكر ، والثانية في خلافة عثمان ، وأن العلة
في الجمع الأول ، قد كانت هي الخوف على القرآن
أن يذهب وفي الثاني قد كانت هي الخوف على المسلمين
أن يختلفوا ويتصارعوا حول قراءته .

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ١/٦١

(٢) تفسير القرطبي : ٤٠/١

ترتيب الآيات والسور في القرآن :

وقد تسأل : وهل ترتيب الآيات في السور ، وترتيب السور في المصحف من عمل النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، أم أن الله تعالى قد انفرد به وحده ولم يشرك فيه أحداً غيره ؟ . والجواب : أن هذه القضية قد اختلفت فيها المذاهب وتعددت المناحي والمشارب ، وأقرب الأقوال فيها الى الصواب هو أن ترتيب الآيات في السور عمل من أعمال الله تعالى وحده (١) ، فإن القرآن قد نزل إلى سماء الدنيا جملة كما عرفت ، وإن جبريل قد هبط به على فؤاد النبي صلوات الله وسلامه عليه مجزئاً في ثلاث وعشرين سنة ، وكانت السورة تنزل في أمر يحدث والآية جواباً لمستخبر يسأل (٢) . وكان جبريل عليه السلام يوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على موضع السورة والآية (٣) . والدليل على هذا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما من أنه لما نزل قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٤) .

(١) الألوسى : روح المعاني : ٢٦/١

(٢) تفسير القرطبي : ٥٢/١

(٣) السيوطي : الانتقان في علوم القرآن ١/٦٣ ، ٦٤ ، الألوسى :

روح المعاني : ٢٧/١

(٤) سورة البقرة : ٢٨١

قال جبريل : يا محمد ضع هذه الآية على رأس ثمانين ومائتين من البقرة (١) ، وهكذا في كل مرة .

ودليل ثان وهو أن إعجاز القرآن ليس مقصوراً على مبانيه ومعانيه وحسب وإنما هو شامل لترتيبه وتنسيقه كذلك ، وقرأ في هذا إن شئت قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٢) .

والذي يقرأ القرآن متدبراً له ومتأملاً فيه يتبين له في جلاء أن ترتيب الآيات في السور ليس من عمل البشر ، وإنما هو من عمل الخالق القوي القدير ، فإن السورة الواحدة من القرآن تنتظم في نسقها الآيات المكية والآيات المدنية في اختلاط عجيب ، وامتزاج غريب ، ولو كان ترتيب الآيات في السور من عند غير الله ، لاستقلت الآيات المكية في سورة أو سور وحدها ، وكذلك الآيات المدنية ، ولما شاهدنا هذه العقود الفريدة من الدر والجوهر في هذا النظم الساحر وهذا النسق الأخاذ .

(١) تفسير القرطبي : ٥٣/١

(٢) سورة هود : ١

وعلى هذا الأساس فإن ترتيب الآيات في السور من لدن حكيم خبير وهو الله (١) عز وجل ما في هذا شك ولا ارتياب ، فإن لكل سورة من سور القرآن هدفا تسعى إليه وغاية تجرى إلى تحقيقها ، وهذا الترتيب والتنسيق هو أحد الوسائل التي لا بد منها لبلوغ هذا الهدف ، وإدراك هذه الغاية ، والأمر كذلك بالنسبة للسور ، فإن لها هي الأخرى هدفا تسعى إليه ، وغاية تجرى لتحقيقها ، وإن هذا الترتيب الذي هي عليه هو أحد الوسائل الضرورية لبلوغ هذا الهدف ، وتحقيق هذه الغاية أيضا هذه واحدة . والثانية أن الباحثين الذين كرسوا جهودهم وأوقاتهم في اكتشاف الروابط والصلات التي تجمع هذه السور بعضها إلى بعض في هذا الترتيب القائم في مصحف الإمام ، قد توصلوا إلى أسرار ولطائف ، تدل على أن الذي نسق هذه السور ورتبها ، إنما هو الله الذي لا حد لعلمه ، ولا نهاية لإتقانه وإبداعه ، وأقرأ إن شئت في هذه الروابط والمناسبات بين السور ، تفسير المنار للإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا ، فقد بلغ في هذا الميدان الأوج الذي لا يدرك والغاية التي لا تنال .

(١) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن : ٦٣/١

فإن قلت : كيف تدعى أن ترتيب الآيات وترتيب
السور كليهما من عند الله ، وقد تضافرت الروايات
على أن مصاحف الصحابة قد كانت مختلفة في ترتيب
السور (١) ، فمصحف على يغاير مصحف ابن مسعود ،
وهما يغايران مصحف أبي ، وكلها لا تتفق ومصحف
عثمان ، الذي جمع عليه الأمة وأحرق ما عداه ؟ .
والجواب : أن هذا الاختلاف قد كان قبل أن يعرض جبريل
القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام في المرة الثانية ،
أما بعد هذا العرض فإن ترتيب السور قد صار واحداً
في سائر المصاحف ، ولتوضيح هذا المعنى أقول : إن
جبريل عليه السلام قد كان يقرأ القرآن على محمد
صلوات الله وسلامه عليه مرة واحدة في كل سنة ، فلما
كانت السنة التي صعد فيها إلى الرفيق الأعلى قرأ
عليه القرآن مرتين (٢) وكان قد تم ، فكانت المرة
الثانية هي التي عليها المعوّل وهي التي وضع فيها
كل شيء في موضعه الذي لا يجوز تحريفه عنه ، ولا إحلال
غيره محله ، وفي هذا يقول الإمام القرطبي في تفسيره :
« وأما ما روى من اختلاف مصحف أبيّ وعليّ ،

(١) تفسير القرطبي : ٥١/١

(٢) تفسير ابن كثير : ٣/٤

وعبد الله ، فإنما كان قبل العرض الأخير ، وأن رسول الله ﷺ رتب لهم تأليف السور بعد إن لم يكن فعل ذلك » (١) . روى يونس عن ابن وهب قال : سمعت مالكا يقول : إنما ألف القرآن على ما كانوا يسمعون من رسول الله ﷺ (٢) ، ونقل عن أبي بكر الأنباري بعد كلام طويل ما نصه : فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه السلام عن رب العالمين ، فمن آخر سورة مقدمة ، أو قدم سورة مؤخرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام ، والأنعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله ﷺ ، أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان يقول : « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن » . وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات (٣) .

وصفة القول : أن ترتيب الآيات في السور ، وترتيب السور في المصحف من عند الله ، وأنه لا يحل لمسلم أن

(١) تفسير القرطبي : ٥٢/١

(٢) تفسير القرطبي : ٥٢/١

(٣) تفسير القرطبي : ٥٢/١

يجعل آية محل آية ، ولا أن يضع سورة مكان سورة ، فإن فعل كان مبدلاً لكتاب الله ومحرفاً له عن مواضعه ، وما كان من اختلاف بين مصاحف الصحابة في ترتيب السور ، فمرده إلى ما قبل القراءة الأخيرة لجبريل على محمد صلوات الله وسلامه عليه ، أما بعدها فإن الترتيب قد كان واحداً ، وإن النسق قد كان غير مختلف . وقد تسأل : لماذا قدمت البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، على غيرها في المصحف ، وهذه السور كلها مما نزل في المدينة ، والمنطق يحتم تقديم ما نزل في مكة لأنه هو السابق ؟ .

والجواب من وجهين :

أحدهما : أن هذا الترتيب ليس من عند البشر كما عرفت ، وإنما هو من عند الله عز وجل وعلينا أن نتقبله أو لا ، ثم نلتمس الحكمة فيه ، فإن عثرنا عليها فذاك ، وإلا فإن التسليم هو السبيل الذي لا معدل عنه ولا طريق سواه .

ثانيهما : أن القرآن نزل مطابقاً للكلام العرب وموافقاً لتثقيفهم له ، وتنسيقهم إياه ، وقد كان من دأبهم تقديم المتأخر ، وتأخير المتقدم ، وفي هذا يقول الشاعر (١) :

(١) تفسير القرطبي : ١/٣٥٤ .

إن بدلت منهم وحوشا
وغيرت حالها الخطوب
عينك دمعهما سروب
كان شأنهما شعيب

أراد عينك دمعهما سروب لأن تبدلت من أهلها
وحوشا ، فقدم المؤخر ، وأخر المقدم ، وأنت خير بأن
القرآن قد تحدى العرب وطالبهم أن يأتوا بمثله أو
بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله ، وقد عجزوا
عن ذلك وضعفت قدرتهم . وهو لا يختلف كما عرفت
عن كلامهم وترتيبهم لأحاديثهم ، وطريقتهم في نثرهم ،
ونظمهم ، فكان هذا دليلا على أنه من البلاغة في درجة
أعلى من بلاغتهم ، ومن الفصاحة في منزلة أسمى من
فصاحتهم ، وأنه ليس مما يستطيع البشر معارضته ،
والنسخ على منواله ، وقد قرر الفصحاء والبلغاء منهم ،
هذا المعنى عندما نفى أحدهم أن يكون القرآن سحراً ،
أو شعرا ، وقال فيه : والله ما هو من كلام الإنس ولا
من كلام الجن ، إن فيه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ،
وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر وإنه ليعلو ، ولا
يعلى (١) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٦١

بين القرآن والسنة :

وواضح مما سبق أن الكتاب والسنة كليهما قد أطريا قارىء القرآن ، وعلماه كيف يتلوه غضباً كما أنزله الله ، وهكذا تعاون الأصلان الكريمان في تحقيق هذا الهدف وتحقيق غيره من مبادئ الإسلام وتعاليمه ، وفي ذلك يقول المولى عز وجل : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (١) . ومعنى هذه الآية : أن الله تعالى قد وضع على كاهل النبي عليه الصلاة والسلام تبين (٢) آياته ، فيفصل ما أجملت ، ويوضح ما أبهمت ، ويخصص ما عممت ، ويقيد ما خصصت ، هذه ناحية ، وناحية أخرى ، وهى إصدار أحكام لم يرد لها ذكر فى القرآن ، ومن الجانب الأول على سبيل المثال ، الصلاة ، فقد فرضها الله تعالى فى كتابه من غير ذكر لوقتها ، ولا لعددتها ، ولا لأركانها ، وشروطها ، وقد فصل النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله ، وما نقوله فى الصلاة نقول مثله فى الزكاة ، والحج ، فإن ما جاء عنهما فى القرآن مجمل ، وقد بينت السنة كل

(١) سورة النحل : ٤٤

(٢) تفسير القرطبي : ٣٢/١

شئ بالنسبة لهما ، فمقدار الزكاة ونصابها ، مما تولته السنة ، وأركان الحج ، وواجباته كذلك . ومن الجانب الثانى : تحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها (١) ، وتحريم الحمر الأهلية ، وكل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير والقضاء باليمين مع الشاهد . . . إلى آخره .

ولأن مهمة السنة هى بيان القرآن كما رأيت ، فقد أوجب الله تعالى على عباده ، طاعة رسوله وأزمهم اتباعه ، فى كل ما يأمر به وما ينهى عنه ، واقرأ فى هذا قوله تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢) . وقوله سبحانه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٣) ، وروى الثقات عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : إنى أوتيت القرآن ومثله معه » (٤) . والمقصود من المثل هنا هو السنة ، وقد ادعى فريق من الناس أننا غير مطالبين إلا باتباع القرآن وحده ، وأن ما نقل إلينا من حديث رسول الله صلوات الله عليه فيجب عرضه على القرآن ،

(١) تفسير القرطبى : ٣٤/١

(٢) سورة النساء : ٨٠

(٣) سورة آل عمران : ٣١

(٤) تفسير القرطبى : ٣٢/١

فإن وافقه أخذ به ، وإلا لم يؤبه له ، ودليلهم على هذا أن السنة لم تنقل إلينا بالتواتر كما نقل القرآن ، وإنما هي أحاديث آحاد لا تسلم من الشك ولا تخلص من الريبة ، وقد اتفق الباحثون على أن الوضع والافتيات ، قد تطرق إلى الحديث ، وأن أحاديث كثيرة ليست صحيحة النسبة إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وما دام الأمر كذلك ، فإنه لا سبيل إلى الثقة في السنة ، ولا إلى الاعتماد عليها ، وحجة ثانية هي : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « لا تكتبوا عني شيئاً ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه » (١) . وهذا النهي معناه أن السنة ليس لها عمل في هذا الدين ، ولو كان لها عمل لدعى إلى كتابتها حتى لا يفنيها النسيان ، وتشوهها الزيادة والنقصان ، وتبقى بعد فناء من سمعوها ، وزوال من تلقوها ، عن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وهذا الرأي لا تستريح إليه النفس ، ولا يطمئن إليه القلب ، لما سبق وقررنا أن مهمة السنة هي تبين ما أجمل القرآن ، وتوضيح ما أبهم ، وأنه لولاها ، ما استطعنا تحديد عدد الصلوات ، وأوقاتها ، وشروطها ، وأركانها ، وكل ما ورد مجملاً

(١) تفسير ابن كثير ١٠/٤

في القرآن ، مثل الصوم ، والزكاة ، والحج ، وغير ذلك مما تجده مبسوطا في مظانه .

أما الأدلة التي ساقها الفريق المخالف ، فإنها كلها داحضة ، ولا تستطيع الوقوف أمام قوانين العلم ، وأقيسة المنطق ، فكون الأحاديث قد نقلت إلينا من طريق غير قطعي ، لا يتعارض ، وكونها تبين القرآن وتوضح أوامره ونواهيه في الأذهان ، وكون الكثير منها موضوع ومختلق على رسول الله ﷺ لا يسقط قيمتها كلها ، فإن العلماء قد انقطعوا لها وكرسوا جهودهم من أجلها ، ووضعوا القواعد ، والقوانين ، التي تميز صحيحها من سقيمها ، وسليمها من مريضها ، وقد اتفق الباحثون على أن المنهج الموضوع لذلك من المحدثين لا نظير له في الشرق والغرب ، وعند المسلمين وغيرهم على سبيل العموم .

يبقى نهى الرسول صلوات الله عليه عن كتابة السنة ، وليس الهدف من ذلك ، هو أنه كان يعمل على زوالها ، وإنما الهدف هو خشيته على القرآن أن يقترن بغيره (١) ، ويختلط بما ليس منه ، وقد أجمع السلف والخلف جميعا

(١) تفسير ابن كثير ١٠/٤

على أن ما صحت نسبته إلى النبي من الحديث ، وترجح نقله عنه فقد وجب العمل به والاعتماد عليه .

وصفوة القول : أن السنة إحدى دعامتي الإسلام ، وإحدى الساريتين اللتين يقوم عليهما ، وأن من أنكر ذلك فقد ضل وغوى ، وقد روى الثقة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه خطب الناس يوم الحج الأكبر ، فقال : « أيها الناس إنى تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وسنتي ، ألا هل بلغت اللهم اشهد » (١) ، وقد وردت أحاديث كثيرة تدعو إلى التمسك بالسنة والعمل بما جاء فيها من الأوامر والنواهي فهل بقى بعد هذا قول لقائل أو اعتراض لمعترض .

تفسير القرآن :

ولا جدال في أن تبين الرسول للقرآن هو ضرب من تفسيره ، وعلى هذا الأساس فإنه عليه الصلاة والسلام يكون قد فسر لأصحابه ما كان ينزل عليه ، وقول أم المؤمنين عائشة : « ما كان رسول الله ﷺ يفسر من كتاب الله إلا آيات علمه إياهن جبريل » (٢) . فمحمول

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٣/٥

(٢) تفسير القرطبي : ٢٧/١

على آيات المغيبات التي لا يعلمها إلا الله ، كوقت قيام الساعة ، وعدد النفخات في الصور وغيرهما ، فإن قلت: وكيف كان النبي صلوات الله عليه يفسر لأصحابه القرآن ، وقد كانوا عربا والقرآن عربى ؟ . فالجواب: أن كونهم كذلك لا يستلزم عدم حاجتهم إلى التفسير لأنه لا يمكن أن يكون كل واحد منهم على علم تام ، وفهم شامل للغة العربية ، وإنما كان بعضهم كذلك ، وكان البعض الآخر ضعيف العلم ، قليل المعرفة ، يحتاج إلى من يفقهه بما لا يفهم ، ويبصره بما لا يعلم .

ثم إن القرآن قد اشتمل على آيات محكمات ، هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، وإن ما تشابه منه لا يعرف تأويله إلا الراسخون في العلم ، والمتعمقون في المعرفة ، وفي هذا يقول المولى سبحانه في سورة آل عمران : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب » (١) .

(١) سورة آل عمران : ٧

وواضح من هذه الآية أن تفسير القرآن ليس سهلاً ، ولا هو مما يستطيعه كل عربى ، فإن فيه من الآيات من لا يستطيع تأويلها إلا من آتاهم الله العلم الراسخ ، والعقل الثاقب ، والفكر المعتدل ، ومع أن أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، قد كانوا يسمعون تفسيره منه ، ويتلقون توضيحه عنه ، فإن الكثيرين منهم كانوا إذا سئلوا عن تفسير آية ، ملأ الخوف قلوبهم ، وأفعمت الخشية نفوسهم ، وآثروا الصمت عن الكلام . والسر فى هذا هو أنهم كانوا يخشون ألا يوافق تفسيرهم مراد الله تعالى فيعاقبهم على ما قالوا ، ويأخذهم بما تكلموا ، . سئل أبو بكر رضى الله عنه عن تفسير حرف من القرآن فقال : « أى سماء تظلمنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد » (١) .

وقد تسأل : وهل معنى هذا أننا ممنوعون من تفسير كتاب الله ؟ . وأنه لا يجوز لنا أن نقول فيه إلا ما سمعه الصحابة من النبى صلوات الله وسلامه عليه ؟ .

والجواب : أن فريقاً من الناس ذهب إلى ذلك وجعل التفسير وقفاً على المأثور (١) ، حتى لا نسند إلى الله تعالى ما لم يقله ، ولا نضيف إليه إلا ما صدر عنه . غير أن هذا الاتجاه غير سليم لأن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد فسروا القرآن ، واختلفت في تأويله مذاهبهم ومناهجهم ، ولو كان التفسير مقصوراً على ما سمعوه لما أباحوا لأنفسهم ذلك . وعليه فإن تفسير القرآن جائز ، ولكن لا يصح أن يقرب هذا الميدان إلا من اجتمعت فيه شروط منها (٢) : العلم الواسع باللغة العربية ، والبيئة العربية ، وما رواه الصحابة ، والتابعون ، في التفسير ، أضف إلى هذا معرفة الناسخ والمنسوخ ، والمطلق والمقيد ، وأسباب النزول ومناسباته وقبل هذا كله ، وبعد هذا كله ، يجب أن يكون ذا عقل رشيد ، وفكر سديد ، وخوف دائم ، من القوى المجيد ، وألا يكون ذا مذهب ، أو نحلة ، يستقطب آيات القرآن إليها ويكرهاها على السير في مضمارها ، لأنه لو كان كذلك لكان مفسراً للقرآن برأيه ، ومبيناً لمعانيه بهواه ،

(١) تفسير القرطبي : ٢٨/١

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار : ١٩/١ - ٢١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م ، السيد محمود الألوسي : روح المعاني ٥/١ ، ٦ دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨م .

وقد تضافرت الروايات على أن من فسر القرآن برأيه، فقد أخطأ وإن أصاب . وقالوا في تفسير ذلك : إن من كان له هوى أو مذهب ثم فسر القرآن بما يوافق هواه، ومذهبه ، فقد فسره برأيه (١) ، ومن كان جاهلا بما رواه الصحابة والتابعون ، فقد فسره برأيه كذلك ، وقل مثل هذا في من لا يعرف وجوه اللغة ، وأسباب النزول ، والمحكم ، والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ . . إلى آخره . فإن هؤلاء الناس يخطئون (٢) في تفسير آيات القرآن وإن أصابوا (٣) .

والخلاصة : أن تفسير كتاب الله مباح لكل من استوفى شروطه ، وأوتى القدرة عليه ، وأن العلماء لهم فيه منهجان : أحدهما : الاقتصار في التفسير على ما رواه الصحابة والتابعون ، . والثاني : إعمال الرأي ، والاعتماد على الفهم والفقہ وعدم الانقياد للهوى والغرض .

وقد حمل أمانة التفسير من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام رجال منهم :

(١) تفسير القرطبي : ٢٨/١
(٢) الألوسى : روح المعاني : ٦/١
(٣) تفسير الطبري ٣٥/١

علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله
ابن مسعود ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبي
ابن كعب ، وزيد بن ثابت . ولم يكن منهج هؤلاء
جميعاً واحداً ، وإنما كانت لهم مناهج مختلفة ،
واتجاهات شتى ، ليست تتسع لبسطها هذه السطور .

• • •

• • •

• • •

١٨٧ : تاريخ الإسلام
١٧ : تاريخ الإسلام
١٨٧ : تاريخ الإسلام

الفصل الثاني



القرآن وحفاظه في مكة

Handwritten text at the top of the page, possibly a title or header, which is mostly illegible due to fading and bleed-through.

Main body of handwritten text, consisting of several lines of cursive script. The text is significantly faded and difficult to decipher.

Handwritten text at the bottom of the page, possibly a signature or footer, which is also mostly illegible.

الفصل الثانی

القرآن وحفاظه في مكة

خصائص القرآن المكي وأهدافه :

ولا ريب أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد كانوا جميعاً يقرءون القرآن ، وكانوا يحفظون منه ما يكفي لأداء الصلوات المفروضة والمسنونة ، وكان فريق منهم يحفظ ما هو أكثر من ذلك ، ولكن على تفاوت واختلاف فيما بينهم ، فمنهم من كان يحفظ الجزء والجزئين ، ومنهم من كان يحفظ السورة والسورتين . أما القرآن كله فلم يكن يحفظه غير ثلثة من أهل مكة ، وثلثة من أهل المدينة (١) ، وهؤلاء وأولئك لم يزد عددهم على أصابع اليدين إلا قليلاً . وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنهم كانوا اثني عشر رجلاً سبعة من أهل مكة . وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمرو ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وخمسة من أهل المدينة وهم : زيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وعويمر بن ثعلبة ، وسعيد بن عبيد ، وهؤلاء الخمسة

(١) تفسير ابن كثير : ٢٨/٤

من الخرج . وقد تسأل : ولماذا لم يحفظ القرآن كله من الصحابة في حياة النبي صلوات الله عليه غير هذا العدد القليل ، مع توافر الدواعى وتهىء الظروف للانقطاع للقرآن ، وتكريس الوقت والجهد لتلاوته وحفظه ؟ . والجواب من وجهين :

أحدهما : أن القرآن كان ينزل مجزئاً ومنجماً على النبي عليه الصلاة والسلام كلما دعا داع أو وقع حادث (١) ، فكان الرجال الذين يكتبون الوحي بين يدي النبي صلوات الله عليه يثبتون ما نزل ، وكان صلى الله عليه وسلم يقرأه على من حضر من أصحابه فيحفظه بعضهم ولا يحفظه البعض الآخر . ومن أجل هذا كان حفظ القرآن غير ميسور إلا للنفر الذين يلازمون النبي ولا يفارقونه في حضر ولا في سفر ، وما أظن أن هؤلاء قد كانوا من الكثرة بحيث تتعطل الأعمال وينتهى السعى في طلب الرزق وتحصيل القوت .

وأنت إذا استعرضت سيرة الرجال الإثنى عشر الذين ذكرنا أسماءهم آنفاً ، وجدت بعضهم ممن كانوا يكتبون الوحي بين يدي النبي عليه الصلاة والسلام من أمثال عثمان ، وعلى (٢) وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب ،

(١) السيوطى : الاتقان في علوم القرآن : ٤٢/١

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٩/٥ ، ٣٤٠

والبعض الآخر ممن كانوا يلازمون ولا يغيبون عن مجلسه من أمثال ابن مسعود ، وابن جبل ، وابن عمرو الذي لم يكن يكفيه أن يكتب القرآن وإنما كان يكتب السنة كذلك (١) .

والوجه الثاني : وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين قد كانوا يستجيبون لله ورسوله في كل ما يدعوانهم إليه فور علمهم به أو سماعهم له ، وكانوا يتخرجون من التريث أو التمهل خوفا من غضب الله تعالى ، وطمعا في رحمته ، ومن أجل هذا فإنهم كانوا إذا حفظوا آية من القرآن لم يتجاوزوها إلى غيرها إلا بعد فهمهم لها ، وعلمهم بما فيها (٢) ، ومن أجل هذا قل الحفظ وكثير العمل . وقد روى عن بعض الصالحين أنه قال : « كنت أقرأ القرآن كله في كل ليلة ثم صرت أقرأه في ثلاث سنين ، وقد مر على الآن أربعون سنة ولم أنته من قراءته . قالوا : ولما ذلك ؟ قال : لأنى في هذه المرة لا أتجاوز آية إلى أخرى حتى أفقه هدفها ومعناها ، وما تنطوى عليه من الألفاظ والأسرار » . وقد يكون هذا هو السبب الذي من أجله كان من يحفظ

(١) ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة : ٣٥١/٢ ،

٣٥٢ مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ .

(٢) الزركشي : البرهان ٤٥٠/١

البقرة وآل عمران في حياة النبي عليه الصلاة والسلام لا يكاد الناس يرفعون وجوههم إلى وجهه هيبة له وإجلالا لقدره (١) . وذلك لكثرة عبادته وشدة تقواه وقربه من ربه .

وقد يقول قائل : كيف يكون حفاظ القرآن في حياة النبي عليه الصلاة والسلام اثني عشر كما تزعم ، وقد تضافرت الروايات على أن من قتل في معركة اليمامة وحدها من الحفاظ قد كانوا سبعين (٢) ؟ .

والجواب : أن لفظ الحافظ لم يكن مقصوراً في عهد النبي عليه الصلاة والسلام على من حفظ القرآن كله ، وإنما كان يطلق عليهم وعلى غيرهم ممن كانوا يحفظون الجزء والجزئين ، والسورة والسورتين ، وعلى هذا الأساس فلا تعارض بين ما قلناه وما تضافرت عليه الروايات . وحيث إن الحفاظ الإثني عشر الذين ذكرنا أسماءهم من قبل لم يكونوا من مكة وحدها ، ولا من المدينة وحدها ، وإنما كان بعضهم من هذه وبعضهم من تلك ، فإننا سوف نستعرض حياة كل واحدة من هاتين الطائفتين ، متأسين بالقرآن في تقديم المهاجرين

(١) الزركشي : البرهان : ٢٦٥/١

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٩/٦

على الأَنْصار ، والسابقين من أهل مكة على السابقين من أهل المدينة ، مع إِماعة موجزة عن أهداف القرآن وأغراضه في مكة ، وأهدافه وأغراضه في المدينة ، حتى يكون النفع أو في ، والإفادة أكمل وأجمل . فتعال بنا إذن إلى حرم الله الأَمَن وبلده الوادع ، إلى حيث هاجر إبراهيم ، وعاش إسماعيل ، وبعث البشير النذير والسراج المُنير ، ونزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، تعال بنا إلى منزل الوحي ، وموطن العلم ، ومشرق الرسالة ، تعال بنا إلى مكة المكرمة ، التي أعلى الله قدرها ، ورفع ذكرها ، ودعا عباده إلى القصد إليها ، وذكر الله فيها في أيام معلومات ، شكرا له على أنعمه عليهم ، ورزقه لهم ، وحفظه إياهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، وهدايتهم إلى سبيله القويم ، وصراطه المستقيم .

فمن فوق أحد جبالها الشم ، ومن غار حراء من هذا الجبل على سبيل التحديد انبثق فجر الدين الحق وذرّ شارقه ، وذلك عندما هبط بجبريل على محمد صلوات الله عليه وهو عاكف فيه ، يفكر في « الشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ،

• ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها « (١) .
• وأنزل عليه الآية الأولى أو النجم الأول من القرآن .
• وقد اختلف الرواة في هذه الآية أو في هذا النجم ما هو ؟ فقال بعضهم : إنه هو الآيات الأولى من سورة العلق (٢) وقال آخرون بل إنه هو الآيات الأولى كذلك من سورة المدثر (٣) ، وذهب فريق ثالث إلى أنه لا هذا ولا ذاك ، وإنما هو فاتحة الكتاب (٤) . ولكل طائفة من هذه الطوائف الثلاث من الأدلة ما يشد أزرها ، ويدعم وجهة نظرها . ولأن هذه السطور لا تتسع لتحرير هذه الأدلة كافة ، فضلا عن المقارنة والموازنة بينها ، فإنى أقتصر هنا على إثبات أن الجمهور على أن أول ما نزل من القرآن هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » (٥) .
ثم فتر الوحي ثلاث سنين ، تتابع (٦) بعدها نزول القرآن ، مسجلا ما كان بين النبي عليه الصلاة والسلام

(١) سورة الشمس : ١ - ٨

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١١٢/١ مكتبة القدس القاهرة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٣٢/٢

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/٣

(٥) سورة العلق : ١ - ٥

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦/٣

وقريش ، ومعلقا على أهم الأحداث التي وقعت بين
البعثة والهجرة من مكة إلى المدينة ، وناقدا وموجها
للمجتمع المكي وما كان فيه من العادات ، والأعراف ،
والتقاليد ، وموضحا موقف المشركين من المسلمين عامة ،
والمستضعفين منهم على سبيل التحديد ، ومصبرا ومسلما
للنبي صلوات الله عليه بذكر أنبياء الغابرين من الأمم ،
وأخبار السابقين من الأنبياء والرسل ، وكيف أنهم
قد اضطهدوا وأوذوا وصبروا حتى جاءهم النصر من
السماء ، فذهب الزبد جفاءً ، ولم يبق في الأرض إلا
ما ينفع الناس ويصلحهم ، ويرفع الأصر والأغلال
عنهم . وقبل هذا كله وبعد هذا كله تناول القرآن
عقيدة التوحيد ، فدعا إليها بعد أن خلصها من الدرر ،
ونقاها من الزيف ، وحررها مما أدخله عليها اليهود
والنصارى ، وغيرهما ، من أصحاب الملل والنحل
الأخرى ، وأقام الأدلة العقلية والحسية والنفسية على
وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وأنه ليس كمثله شيء .
وناقش المشركين من عبدة الحجر والشجر والشمس
والقمر ، وغيرها ، نقاشا هادئاً مقنعا ، لا استعلاء فيه ،
ولا تسلط ولا احتقار للخصم ، وإنما هي حجج تتوالى ،
وأدلة تتلى ، لا تدع أمام العقل باباً غير التسليم
بالتوحيد الخالص إلا أغلقته ، ولا سبيلا إلا أوصدته .

ولولا الخوف من الاسترسال والطول لسجلت الشواهد
من كتاب الله تعالى على كل ما ذكرت . ولكن المتدبر
لكتاب الله تعالى والمتأمل في مبانيه ومعانيه ، سوف
يجد هذا كله فيه واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار ،
من مثل قوله تعالى في نقد أعراف المجتمع المكي
وهاداته : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً
وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به
أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما
يحكمون » (١) . وقوله في نقد الأسواق وما فيها من
الزيف والغش : « ويل للمطففين . الذين إذا اکتالوا
على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم
يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم .
يوم يقوم الناس لرب العالمين » (٢) . وقوله في نقد
ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان : « إن الذين
تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا
لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم
أيدي يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان
يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون .
إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى

(١) سورة الفحل : ٥٨ ، ٥٩

(٢) سورة المطففين : ١ - ٦

الصالحين» (١) . وقوله في نقد موقف المشركين من النبي عليه الصلاة والسلام : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا » (٢) .

وأعجب من هذا كله في مناظرة القوم ، والتواضع لهم ، والنزول الى مستواهم ، مع الفرق الهائل بينهم وبينه - جل وعز - أغرب من هذا كله قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » (٣) . فهل رأيت أدبا في المناقشة أروع من هذا الأدب ، وهل عرفت تواضعا وتنازلا في الحوار والجدل أسمى من هذا التنازل والتواضع ! ومع ذلك فإن القوم لم يكونوا على المستوى الرفيع من الخصومة ، وإنما كانوا يدفعون اللين بالعنف ، ويردون الحسن بالسوء ، واقرأ في هذا إن شئت قوله تعالى : « وقال الذين كفروا

(١) سورة الأعراف : ١٩٤ - ١٩٦

(٢) سورة الإسراء : ٩٠ - ٩٣

(٣) سورة سبأ : ٢٤

لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون « (١) .
وقوله سبحانه : « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر
إنك لمجنون . لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من
الصادقين » (٢) . وقوله سبحانه : « وقالوا أساطير
الأولين اكتتبتها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » (٣) .
وقوله سبحانه : « أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا
لشئ عجاب » (٤) . ومهما يكن من شئ فإن النبي
عليه الصلاة والسلام قد كان يقرأ على أصحابه ما ينزل
عليه ، ولأن المشركين قد كانوا يصدون عن القرآن ،
وينهون نساءهم وصبيانهم وعبدانهم عن الاستماع
إليه ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه قد كان يتلوه على
المسلمين في جبال مكة وشعابها ، حيث يقفر الطريق
وينقطع السبيل وتنأى العيون التي تراقب حركات
النبي وأصحابه وسكناتهم ، كل ذلك قبل أن يدخل
الأرقم بن أبى الأرقم فى الدين الحق ، فلما أوى إلى
الإسلام وانصوى تحت لوائه اختار النبي عليه الصلاة
والسلام داره - وكانت على كثر من الصفا - فجلس

(١) سورة فصلت : ٢١

(٢) سورة الحجر : ٦ ، ٧

(٣) سورة الفرقان : ٥

(٤) سورة «ص» : ٥

فيها لأصحابه (١) يتلو عليهم القرآن ، ويفقههم في الأحكام ، ويوضح لهم ما غمض عليهم من أخبار الأولين ، وأنباء المرسلين ، وما يكون يوم يقوم الناس لرب العالمين ، من الحشر والنشر ، والحساب والميزان ، والجنة والنار ، وما يدور فيهما بين المؤمنين والكافرين ، وبين كل طائفة من الطائفتين بعضها وبعض ، مما أفاض فيه الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم من مثل قوله تعالى : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » (٢) . وقوله سبحانه : « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين » (٣) . وقوله عز وجل : « هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار . قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار . وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرى أم زاعجت

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ١٨/١

(٢) سورة الأعراف : ٤٤

(٣) سورة الأعراف : ٥٠

عينهم الأبصار • إن ذلك لحق تخاصم أهل النار « (١) •
إلى غير ذلك مما يملأ القلوب رهبة من عذاب الله ،
ورغبة في رحمته ، وانقياداً لطاعته ، وامتناعاً عن
معصيته • وقد يقال : والنساء كيف كن يتلقين القرآن؟
والجواب : كن يتلقينه عن أزواجهن أو عن يقرأه
عليهن من أصحاب النبي صلوات الله عليه • وأنت
خبير بأن عمر رضى الله عنه لما أراد الله له الكرامة
وهداه إلى الدخول في الحنيفية السمحة أتى بيت ختنه
سعيد بن زيد ، وكان خباب بن الأرت يقرئه وزوجه
فاطمة بنت الخطاب القرآن ، من صحيفة في يده ، قد
كتبت فيها الآيات الأولى من سورة طه أو سورة
الحديد على خلاف في ذلك بين الرواة (٢) • ولا مانع
عقلاً من أن تكون بعض النساء قد تلقت القرآن من فم
النبي عليه الصلاة والسلام أو من فم أم المؤمنين خديجة
رضى الله عنها ، وإن لم أكن قد رأيت ذلك منصوصاً
عليه في المصادر التي بين يدي •

(١) سورة «ص» : ٥٩ - ٦٤

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٨٠/٣

أبو بكر الصديق ودوره في خدمة القرآن :

والآن وقد قصصت عليك طرفا من الأغراض التي تضمنتها آيات القرآن وسوره في العهد المكي ، فإن الوقت قد حان لأقص عليك طرفا مثله من أخبار النفر الذين حفظوا هذا الكتاب كله ، من أهل مكة ، وهم سبعة ، كما عرفت : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمرو ، وسالم مولى أبي حذيفة . وقد تضافرت الروايات على أن النبي عليه الصلاة والسلام وأبا بكر قد كانا صديقين في الجاهلية (١) ، وكانا صديقين في الإسلام (٢) ، وكان ما بينهما من التقارب في السن والتقارب في الخلق ، والتقارب في الفكر ، يدنى كلا منهما من الآخر . وقد ولد أبو بكر رضي الله عنه في مكة ، وبعد عامين ونصف عام من هزيمة أبرهة (٣) ، وسماه أبواه عند ولادته عتيق ، وعبد الكعبة (٤) ، والسر في هذا هو أن أمه لم يكن يعيش لها ولد ، فلما وضعته وهبته للكعبة

(١) ابن حجر : الاصابة ٣٤١/٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ٣/٣٣٣ طبعة دار الشعب . تحقيق : محمد ابراهيم البنا .

(٣) ابن حجر : الاصابة ٣٤١/٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٠٩

وسألت الله سبحانه أن يعتقه من الموت (١) . ومن المؤرخين من يرى أن السر في تسميته عتيق هو جمال وجهه وحسن صورته وإخبار النبي عليه الصلاة والسلام أنه عتيق من النار (٢) . ولأبى بكر رضى الله عنه اسم ثالث هو عبد الله ، وأول من أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام ويبقى لقبه وكنيته ، فأما اللقب ، وهو أبو بكر ، فالسبب في إطلاقه عليه هو أنه قد كان يجمع الديات (٣) ويدفعها الى مستحقيها ، وقد كانت من الإبل ، وكان البكر أحد أسماء الجمل عند العرب . وأما الكنية وهى الصديق ، فالسر في إطلاقها عليه كذلك هو تصديقه لكل ما تحدث به النبي عليه الصلاة والسلام إلى قومه في شأن الإسراء (٤) .

ولا خلاف بين الرواة وعلماء الأنساب في أن أبا بكر من بنى تيم بن مرة ، وهو أحد بطون قريش العشرة ، وأن أباه هو أبو قحافة (٥) عثمان بن عامر بن عمرو

(١) ابن حجر : الاصابة ٣٤٢/٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٠٩

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١٠

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣/١٧٠ دار صادر - بيروت

سنة ١٩٥٧ م .

(٥) ابن حجر : الاصابة ٣٤١/٢

ابن كعب بن سعد بن تيم ، وأن أمه هي أم الخير سلمة بنت صخر بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم (١) .

وقد تزوج أبو بكر رضى الله عنه أربع نسوة (٢) وهن : قتيلة بنت عبد العزى ، وأم رومان بنت عامر ، وأسماء بنت عميس ، وحببية بنت خارجة . وقد أنجب من الأولى أسماء ، وعبد الله ، وأنجب من الثانية عائشة وعبد الرحمن ، وأنجب من الثالثة محمدا ، وأنجب من الرابعة أم كلثوم ، وهذه الأخيرة قد ولدت بعد وفاته . ويقول الرواة : إن أبا بكر رضى الله عنه قد كان أحد أثرياء قريش وذوى الجاه والمال فيها ، والسبب فى هذا هو أنه كان تاجراً صدوقاً (٣) لا يغش ولا يستغل نقص البضائع فى الأسواق فيبالغ فى ثمنها وتحديد سعرها ، وإنما كان سمحاً اذا باع ، سمحاً اذا اشترى . وقد أكسبته مهنته هذه فوائد شتى ومنافع متعددة ، فمن أسفاره إلى الشام واليمن وغيرهما من البلاد التى كان يتاجر معها أهل مكة . تعلم الكثير من اللغات ، والكثير من الثقافات ، واتسعت معارفه

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٦٩/٣

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٦٩/٣

(٣) ابن حجر : الإصابة ٣٤٢/٢

حتى كان أحد علماء العرب ونسابيها (١) ومن تنقله بين البطون والعشائر عرف مناقب القبائل ومثالبها ، وعرف محاسنها ومعاييبها ، فكان يأتيه الناس من كل مكان في شبه الجزيرة يتعلمون منه ويحتكمون إليه . وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التي من أجلها لم تكن شهرة أبي بكر رضى الله عنه مقصورة على مكة وحدها ، وإنما كانت شائعة في بلاد العرب كافة . وعلى الرغم مما كان في ذوى الغنى والثراء من العرب من العصبية والنعرة الجاهلية وغيرهما من النقائص فإن أحداً من الرواة لم يحص على أبي بكر ولا هناة واحدة في الجاهلية ، فلم يرو أنه قد شرب خمرا ، أو وأد بنتا ، أو قتل عبدا ، أو مارس عملا يزرى به ويحط من قدره ومنزلته . ولا شك أن علمه الواسع ، وثقافته المتنوعة قد كانتا من الأسباب التي ألبسته هذا الثوب الطاهر النقى في الجاهلية .

وسبب ثان لا سبيل الى إغفاله وهو صداقته لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وصحبته الشديدة له ، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه مثلا يضرب في محاسن الخلق ، ومكارم الشيم ، والسعى إلى الكمال ، والتنزه عن كل ما فيه صغار أو نقص .

(١) ابن حجر : الإصابة ٣٤٢/٢

وقد خلت الروايات التي تناولت تاريخ أبي بكر في الجاهلية من حبه رضى الله عنه للأصنام والإكثار من زيارتها ، وتقديم القرابين لها ، ولا شك في أن هذا العزوف عن الوثنية والأوثان والترفع عن عبادتها ، والخضوع لها ، قد كان مما كسبه أبو بكر من صحبته لمحمد النبي فإنه قد كان يكره هذه الأصنام منذ نعومة أظفاره ، ولا يشارك في شيء مما كانوا يفعلونه تجاهها . وجاء الإسلام ودعا النبي عليه الصلاة والسلام أبا بكر للدخول فيه فلم يتردد (١) ، ولم يتلأأ ، وإنما دارت بينه وبين صاحبه محاوراة خفيفة لم يلبث بعدها أن أعلن إيمانه به ، وانقياده له ، ودخوله في دينه ، ومرجع هذا فيما أرى إلى أسباب :

أحدها : صداقته الطويلة والحميمة للنبي ، واعتقاده الذى لا حد له أنه لا يمكن أن يستنكف عن الكذب على الناس ويكذب على الله (٢) .

ثانيها: هذه البشارات التى كان يسمعها من القسيسين والرهبان فى أسفاره الكثيرة ، وهى أن نبيا قد آن

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١١

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ١/٢١٣ دار الكتب العلمية

بيروت . تحقيق الأستاذ : أحمد عبد الشافى .

أوانه وحضر زمانه ، وأنه سوف يبعث في بلاد العرب (١) ، ويكون من ذرية إبراهيم واسماعيل عليهما السلام .

وثالثها : ما رآه في منامه من أن بدرأ قد سقط في حجره ، وتفرقت أنواره فلم تبق دار في مكة إلاّ ودخل فيها قبس من أقباسه ، فلما دعاه محمد عليه الصلاة والسلام إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله لم يتردد (٢) في أنه هو النبي الذي حدثه عنه الرهبان في أسفاره ، وأن النور الذي سقط في حجره وانتشر في دور مكة كافة هو الدين الذي يدعو إليه .

ويقول الرواة : إن هبوط الوحي على النبي عليه الصلاة والسلام قد كان في يوم الإثنين ، وإن إسلام أبي بكر قد كان في يوم الثلاثاء ، وإنه لم يسبقه إلى اعتناقه (٣) غير خديجة بنت خويلد ، وزيد بن حارثة ، وعلى بن أبي طالب ، لأن هؤلاء الثلاثة قد كان يضمهم البيت النبوي ، فخديجة كانت زوجته ، وزيد كان مولاه ، وعلى كان ربيبه وابن عمه .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١٢

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٢٦

وكما كان أبو بكر أول من أسلم من الأحرار فإنه كان كذلك أول من صلى خلف النبي بعد أن علمه جبريل الصلاة^(١)، ومنذ الوهلة التي انضوى فيها هذا الرجل العظيم تحت لواء الحق وضع نفسه وماله في خدمة الدين القيم ، فانطلق يدعو إليه ويبين لأصحابه وخلانه سمو أغراضه ، ونقاء مقاصده وأهدافه ، ولم يلبث أن دخل على النبي عليه الصلاة والسلام ومعه صفوة قريش خلقا وأقواهم عقلا وهم^(٢) : عثمان بن عفان ، وسعد ابن أبي وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وطلحة بن عبيد الله . يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقد علا شأن هؤلاء نفر في الإسلام ، وارتفعت منزلتهم فيه ، فكانوا من العشرة المبشرين بالجنة ، وكانوا من الستة الذين رشحهم أمير المؤمنين عمر للخلافة .

ولم يكن جهاد أبي بكر رضي الله عنه في سبيل الإسلام بالمال أقل من جهاده في سبيله باللسان ، فقد كان يشتري العبيد المسلمين من جلاّديهم ويعتقهم^(٣)، طلباً لمرضاة الله ، وطمعا في ثوابه .

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٢١٤/١

(٢) ابن حجر : الإصابة ٣٤٢/٢

(٣) المقرئزي : امتاع الأسماع ١٩/١

ويقول الرواة : إنه قد كان يملك عند دخوله في الإسلام أربعين ألف درهم ، وإنه قد هاجر إلى المدينة وليس معه سوى خمسة آلاف (١) ، وإن هذه الثروة الطائلة قد أنفقها كلها في سبيل إعلاء كلمة الحق ، وإزهاق كلمة الباطل ، وقد كان أبوه أبو قحافة عثمان ابن عامر آنذاك مشركا فقال له : يا بني إنى أراك تنفق أموالك في شراء ضعفاء العبيد ومن لا غناء فيه منهم ، ولو أنك اشتريت رجلا جلدأ ينصرونك ويشدون أزرك لكان ذلك خيرا لك ، فقال أبو بكر : نعم ما قلت يا أبت لو كنت اشتريتهم لنفسى ، لكننى إنما اشتريتهم ابتغاء مرضاة ربى (٢) .

وكم ذاق أبو بكر وهو الثرى المهاب في قومه من الأذى في سبيل الإسلام وفي سبيل النبى عليه الصلاة والسلام . رأى يوما عقبة بن أبى معيط يخنق رسول الله فدفعه عنه في قوة وصاح في قريش وهم متعلقون حول الكعبة : « يا قوم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم (٣) ، فإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » .

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ١٧٢/٣

(٢) المقرئى : امتاع الأسماع ١٩/١

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣١٩/٣

فأقبل القوم إليه وما زالوا يضربونه حتى لم يعد يفرق بين أنفه ووجهه .

ولما أذن الله للمسلمين في الهجرة إلى المدينة وراحوا يخرجون إليها زرافات ووحदानا كان أبو بكر يطلب من النبي أن يأذن له في مثل ما أذن فيه لأصحابه ، وكان النبي يقول له : يا أبا بكر اصبر ، فلعل الله يجعل لك صاحباً (١) ، وفهم أبو بكر ما تعنيه الإشارة ، فاشترى ناقتين ، وراح يعلفهما انتظاراً للإذن له ولرسول الله في الهجرة ، ولما تحقق هذا الأمل وزار النبي أبا بكر في داره وأعلمه أن الله قد أذن له في الخروج إلى المدينة بكى أبو بكر من شدة الفرح وقال : الصحبة يا رسول الله (٢) ، ولما دنا وقت الرحيل وقرب أبو بكر إحدى الناقتين إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليركبها قال : لا أركب ناقاً لا أملكها . قال أبو بكر : هي لك يا رسول الله ، قال : بثمنها (٣) قال أبو بكر : بثمنها .

فانظر كيف أنه عليه الصلاة والسلام لم يرض

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٣١/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ١٧٣/٣

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٢٤٣/١

أن يمتطى دابة إلاّ إذا ملكها من حر ماله ، وأن صداقته لأبى بكر التى دامت عشرات السنين فى الجاهلية والإسلام لم تجعله يغير هذا المبدأ الذى التزمه واطمأن إلى سلامته .

ولما دنا الرسول عليه الصلاة والسلام من غار ثور ، وهو المكان الذى أعده للاختفاء فيه حتى يسكن الطلب ، أبى أبو بكر إلاّ أن يسبق النبى إلى الدخول فيه خوفاً من أن يكون فى داخله سبع أو حية تؤذيه صلوات الله وسلامه عليه ، ولما تأكد من سلامة الغار وخلوه من الأخطار هتف فدخل النبى عليه الصلاة والسلام (١) .

ولما أحاط المشركون به واجتمعوا حول بابه اشتد حزن أبى بكر وتعاضم خوفه وقال : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن إن الله معنا ، قال أبو بكر : والله لا أحزن خوفاً على نفسى ، فإن أبا بكر إذا مات مات رجل واحد ، وأنت إذا متّ مات الناس كافة .

ولجلال هذا الموقف وروعته نزل فيه قول الله تعالى : «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١٦

معنا « (١) . وفي الطريق الى المدينة كان أبو بكر يسير خلف النبي عليه الصلاة والسلام تارة ، ويسير أمامه تارة ، فسأله صلوات الله عليه عن السبب في ذلك فقال : أذكر الطلب فأسير خلفك ، وأذكر الرصد فأسير أمامك (٢) ، وهكذا كان دأبه حتى نزلا معاً قباء ، فأقاما فيها أياماً ، ثم واصلا سيرهما حتى دخلا المدينة ، وفيها كان أبو بكر نعم الصاحب الكريم ، ونعم الصديق العظيم ، فلم يترك النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة ، ولا تخلف عنه في مشهد (٣) ، ولو شئنا أن نستقصى مناقبه وفضائله لكل القلم ، وفنى القول دون أن ندرك الغاية ونبلغ الهدف . ويكفى أن نعرف أن النبي عليه الصلاة والسلام قد اختاره دون غيره ليكون جليسه في العريش يوم بدر (٤) ، وسأيره دون سواه في فتح مكة ، وتزوج ابنته عائشة وكانت أحب نسائه إليه ، وأمره على الناس يوم الحج الأكبر (٥) ، ولم يمنح هذا الشرف لأحد من أصحابه ، ورشحه ليكون هو الرجل الثاني من

(١) سورة التوبة : ٤٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/ ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٣١٨ .

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ١/ ٤٥٨ دار الكتب العلمية بيروت

تحقيق الأستاذ : أحمد عبد الشافي .

(٥) المقرئزي : امتاع الأسماع ١/ ٤٩٩ ط لجنة التأليف والترجمة

والنشر سنة ١٩٤١م تحقيق : محمود محمد شاكر .

بعده ، في إشارات تكاد تصل إلى حد التصريح والتوضيح ، وأمره قبل وفاته أن ينوب عنه في الصلاة (١) فلما رشحت عائشة رضی الله عنها عمر لذلك على أساس أن أباه رجل أسيف ، وأنه إن يقيم مقام النبي عليه الصلاة والسلام لا يسمع الناس صوته لشدة بكائه وحزنه ، غضب صلوات الله عليه وقال : إنكن صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصلى بالناس .

ولما صعد صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى وأبى عمر أن يسلم أنه قد مات ، حسم أبو بكر الأمر ، ودرأ الخطر وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت (٢) ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » (٣) .

واستخلف المهاجرون والأنصار أبا بكر ، فأنفذ جيش أسامة (٤) ، وأطفأ نار الردة ، ووجه الجيوش

(١) ابن الأثير : الكامل ٢/٢١٨ ط المنيرية سنة ١٣٩٤هـ تحقيق الأستاذ : عبد الوهاب النجار .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/٢٢٤

(٣) سورة آل عمران : ١٤٤

(٤) ابن الأثير : الكامل ٢/٢٢٦

الإسلامية إلى الأمتين الفارسية والرومانية ، فكانت الفتوحات التي لم يعرف لها التاريخ نظيراً حتى اليوم .

وأخيراً وليس آخراً عهد رضى الله عنه إلى عمر بعد أن استشار فيه المهاجرين والأنصار فكان خير خلف لخير سلف .

وقد تسأل: وماذا كان دوره في خدمة القرآن والتمكين له وحماية حياضه ؟ . والجواب : أنه رضى الله عنه قد كان أجود قراءه ، وأتقن حفاظه ، وكان ذا صوت أسيف ، يخلب إليه الأنفس ، ويجذب إليه الأفئدة ، والقلوب . اشتد المشركون في إيذائه فطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يأذن له في الرحيل عن مكة فأذن له ، فغادرها متوجهاً إلى بلد يأمن فيه على نفسه وأهله ، فلقيه ابن الدغنة في الطريق فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟ فقال : إلى حيث أنعم في سربي ، وأستريح في نفسى ، فقد أعنتنى قومي ، وآذانى أبناء بلدى ، قال ابن الدغنة : فعد إذن إلى مكة فأنت في جوارى (١) ، فمثلك يا أبا بكر لا يستغنى عنه قومه ، ولا تفرط فيه عشيرته ، فعاد وراح يقرأ القرآن في مسجد كان قد بناه إلى جانب بيته . ولأن الرجل قد كان رقيق العاطفة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/٩٤

أسيفاً (١) يتهدج صوته اذا قرأ القرآن، وتسيل مدامعه، فإن النساء والأطفال والعبيد قد كانوا يدنون منه ويستمعون إليه، ورأى ذلك وجوه قريش فخافوا الفتنة على نسائهم وأبنائهم ومشوا إلى ابن الدغنة يطلبون منه أن يمنع أبا بكر من القراءة، أو يرفع عنه جواره، وجاء الرجل إلى أبي بكر وأبلغه ما يريد قومه، فقال: «أتطلب مني أن أكف عن تلاوة كتاب الله، لا والله.» ورد عليه جواره وهو يقول: إني أخرج من جوارك إلى جوار ربي» (٢).

ومهما ينسى التاريخ فلا ينسى لأبي بكر جمعه (٣)، وإلقاؤه هذه المهمة العظيمة على عاتق زيد بن ثابت، وذلك عندما استحر القتل في الحفاظ يوم اليمامة، وتخويف عمر له إن هو أهمل هذا العمل أو أرجأه أن يذهب القرآن بذهاب حفاظه من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام (٤). وقد تضافرت الروايات على أن الله تعالى قد أطرى أبا بكر في كتابه، وذكر طائفة من مناقبه وفضائله، واقراً في هذا إن شئت قوله تعالى:

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٧٩/٣

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٩٤/٣

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة ٣٢٤/٣

(٤) تفسير القرطبي: ٤٣/١

« وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف يرضى (١) » .

عمر الفاروق ودوره فى خدمة القرآن :

وكان عمر رضى الله عنه عظيما فى الجاهلية عظيما فى الإسلام ، وكان ما آتاه الله تعالى من المزايا والفضائل كفيلا أن يبوءه قمة المجد ، ويسكنه أوج الرفعة والشرف ، ويقول الرواة : إنه رضى الله عنه قد ولد فى مكة ، وقبل أربعة أعوام من الفجار (٢) ، أو بعد ثلاث عشرة سنة من وقوع حادثة الفيل (٣) . ولا خلاف بين علماء الأنساب فى أنه هو عمر بن الخطاب نفيلى بن عبد العزى (٤) ، وأن البطن الذى ينتمى إليه هو بنو عدى ، وهو أحد بطون قريش العشرة . وقد أنجب عمر فى الجاهلية والإسلام تسعة ذكور ، وأربع بنات ، وذلك من ستة أزواج ، وثلاث أمهات أولاد (٥) .

(١) سورة الليل : ١٧ - ٢١

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢٦٩/٣

(٣) ابن حجر : ٥١٨/٢

(٤) المقرئى : امتاع الأسماع ٢٤/١

(٥) ابن سعد : الطبقات ٢٦٥/٣ ، ٢٦٦

وقد كان عمر وهو في مكة يسكن أصل العاقر ، وهو الجبل الذى أطلق عليه فيما بعد اسم جبل عمر (١) ويظهر أنه رضى الله عنه قد كان يعيش في طفولته عيشة صعبة خشنة ، فقد كان أبوه الخطاب فظا غليظ القلب وكان يؤذيه ويضربه . مر يوما وهو خليفة على ضجنان وهو المكان الذى كان يرعى فيه لأبيه ، فذكر قسوته عليه وسوء معاملته له ، وكيف أنه اليوم ولا أحد فوقه إلا الله (٢) فاستعبر باكيا وانصف . ولما بلغ أشده عشق الخمر فكان يباكرها إذا أصبح ، وكان يعاودها اذا أمسى (٣) ، ومع ذلك فقد كان راجح العقل ، سديد الرأى ، فصيح اللسان ، قوى البيان ، والدليل على هذا أنه كان سفير قريش فى الجاهلية (٤) ، وكان هو الذى يتولى المنافرة والمفاخرة عنها ، وهذا أمر لم يكن يسند إلا إلى من يستطيع الذب عن الحمى ، والدفع عن العشيرة ، ولأن عمر لم تظهر شخصيته ظهورا تاما إلا بعد أن قبل الإسلام ودخل فيه . فإن الرواة لم يتبعوا أخباره فى الجاهلية ، ولم يسجلوا له إلا ما سجلوه لأتراه

(١) ابن سعد : الطبقات ٢٦٦/٣

(٢) ابن سعد : الطبقات ٢٦٧/٣

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية ٢٦٥/١

(٤) ابن حجر : الإصابة ٥١٨/٢

من الرغبة في الصيد والتهالك على شرب الخمر ،
والعكوف على الأوثان والأصنام .

وجاء الإسلام فلم يدخل عمر فيه ولم يهادنه ، وإنما
عاداه وعادى المعتنقين له ، والمنتمين إليه (١) ، فكان
يسب كل من لقيه منهم ، وكان يؤذيهم ويضربهم معتمدا
على قوة ساعديه ، وشدة بنيته ، وما آتاه الله من بسطة
في الجسم ، وخشونة في الطبع ، وكراهية لمن يتصوره
عدواً له ، أو عدواً لدينه . لقي خباب بن الارت وهو
خليفة فسأله عما كان يعانى في الجاهلية فكشف له عن
ظهره وذكره بأنه قد أوقد له ناراً وراح يحرقه بها ،
وأنه لم يكن يطفئها غير شحمه ، فاستفزع ما رأى
واستنكر ما سمع وظل عمر على كيده للإسلام، وإعناته
لأهله ، ست سنين ، ويظهر أنه قد ملَّ هذا السلوك
وراودته نفسه في مراجعة موقفه ، والتفكير في أسبابه
وبواعثه ، وتساءل : لماذا لا يكون هذا الدين حقا ؟
ولماذا لا يكون الذين اعتنقوه وآووا إلى ظله قد أدركوا
الحق ولبوا نداء العقل ؟ . وكان المساء قد أمسى فولى
وجهه نحو الكعبة ، فرأى محمدا عليه الصلاة والسلام

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/١٥٩

يصلى لله ويقراً بعض ما نزل عليه من الوحي ، فأعجبه ما رأى ، وأثر في قلبه ما سمع ، وأراد أن يدنو من النبي ، لكنه خشى أن يروعه ، فدخل تحت أستار الكعبة (١) ، وأخذ يدنو حتى كان بحيث يسمع صوته ، وكان يتلو سورة « الحاقة » ، فأذهله بيان القرآن عن كل شيء ، وقال : والله إن هذا لهو الشعر الذي تصفه به قريش ، فقرأ النبي عليه الصلاة والسلام وما هو بقول شاعر ، فقال : فهو الكهانة إذن ، فقرأ : ولا بقول كاهن ، وطفق النبي يتلو وعمر يسمع حتى انتهت السورة .

وكان الإسلام قد وجد له مكاناً يأوى إليه في قلبه (٢) ، وأصبح عمر فمر في طريقه على أم عبد الله بنت أبي حثمة ، وكانت تتجهز للهجرة إلى الحبشة ، وقد خرج زوجها في حاجة له ، فقال لها عمر : إلى أين يا أم عبد الله ، فقالت : أذيتمونا وقهرتمونا ، لنخرجن في أرض الله حتى يجعل الله لنا مخرجاً ، قالت فقال : صحبتكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها منه ، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا ، قالت : فجاء عامر

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٨١/٣

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١٦٣/١

بحاجته تلك فقلت له : يا أبا عبد الله . لو رأيت عمر
أنفا ورقته وحزنه علينا . قال : أطمعت في إسلامه ،
قالت قلت : نعم ، قال : فلا يسلم الذي رأيت حتى
يسلم حمار الخطاب ، يأسا منه لما كان يرى من غلظته
وقسوته على الاسلام وأهله (١) .

ويبدو لي أن هذا الميل الذي أخذ يطرق قلب عمر
ويمشى الى شغافه رويداً رويداً قد أقلعه ، وخاف إن
هو استسلم له أن يخرج من دين الآباء والأجداد الى
ما يدعو إليه محمد ، ويدخل فيه رجال قريش رجلا
إثر رجل ، فتقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانطلق يبريد
الدار التي يجلس فيها هذا النبي وأصحابه فرآه نعيم
ابن عبد الله فسأله : إلى أين يا عمر ؟ قال : إلى هذا
الرجل الذي سب آلهتنا وسفه أحلامنا ، أقتله وأريح
قومه منه ، قال نعيم : وهل تظن أن بنى عبد مناف
سيتركونك تمشى في الأرض وقد قتلت محمداً إذهب
إلى بيتك فأصلحه ثم اقض ما أنت قاض ، قال عمر :
وماذا في بيتي ؟ قال : أختك وختنك قد أسلما (٢) .
فانطلق إلى دار أخته وختنه فسمع هينمة من بعيد ،

(١) ابن الأثير : الكامل ٥٧/٢

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ٢٦٤/١

وكان خباب في الدار يقرئهما الآيات الأولى من سورة « طه » (١) أو سورة « الحديد » (٢) من صحيفة في يده ، فلما دخل عمر الدار قال : ما هذه الصحيفة ؟ وكان خباب قد اختفى ، وقال لأخته : لقد علمت أنك وزوجك قد صبيئتما ، وأقبل على ختنه يضربه فقامت أخته تدفعه عنه فلطمها لطمه أدمت وجهها فبكت وقالت : أى والله أسلمنا فاقض ما أنت قاض .

فجبل مما فعل وطلب من أخته أن تناوله الصحيفة فقالت : إنك مشرك نجس ، وإنها لا يمسه إلا المطهرون ، فقام فاغتسل وتناول الصحيفة فهزه ما تلا ، وروعه ما قرأ ، ولم ينته منها حتى أسلم ، وسمع خباب عمر وهو يردد الشهادتين فبرز من مخبئه إليه وقال له : أبشر فقد سمعت النبی علیه الصلاة والسلام يقول : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين . عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام ، أيهما أحب إليك (٣) .

وانطلق رضى الله عنه حتى أتى دار الأرقم بن أبى

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٩٦/١ ، ابن الأثير : أسد الغابة

١٥٠/٤

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١٦٠/١

(٣) ابن الأثير : الكامل ٥٨/٢

الأرقم ، فطرق بابها ، فخشى بعض من فيها عندما سمعوا صوت عمر ، فقال حمزة بن عبد المطلب : افتحوا له فإن كان يريد حاجة قضيناها له ، وإلا قتلناه بسيفه ، واستقبله النبي عليه الصلاة والسلام وجذبه جذبا شديداً وهو يقول : أراك لا تنته يا عمر حتى تصيبك قارعة أو تحل قريبا من دارك ، فأسلم (١) . فكبر من في الدار تكبيرة اهتزت لها أرجاء مكة ، وأبى عمر أن يكون إسلامه هكذا خفية فمضى حتى أتى قريشا في نواديها فأعلن أنه قد انضوى تحت لواء الدين الحق (٢) . ومنذ هذه الوهلة راح يؤذى المشركين ويؤذونه ، ويضربهم ويضربونه ، حتى أفسح للمسلمين مكانا يؤدون فيه الصلاة عند الكعبة ، وكانوا من قبل لا يجرؤن على الدنو منها فضلا عن الصلاة عندها (٣) ، وقال للمشركين وهو يتحداهم : والله لو صرنا ثلاثمائة لتركناها لكم أو لتركتموها لنا (٤) .

وفي رواية أن عمر لما أسلم صف النبي أصحابه صفين ، وكانوا أربعين رجلا ، وجعل عمر على أحدهما وحمزة

-
- (١) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٦٨ ، ٢٦٩
 - (٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/١٦١
 - (٣) القرظي : امتاع الأسماع ١/٢٥
 - (٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٩٩

على الآخر ، ووقف هو بينهما ، وخرج الموكب من دار الأرقم بن أبي الأرقم حتى أتى الكعبة وقريش في نواديها ، فأذهلتهم المفاجأة ، وأربكهم المنظر ، ولم يجرؤ واحد منهم على أن يصيب أحداً من المسلمين بأذى (١) وسمى النبي عمر يومئذ الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل (٢) .

وقال ابن مسعود في أحد مجالسه : رحم الله عمر . لقد كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت خلافته نعمة (٣) .

وأذن الله للمسلمين في الهجرة الى المدينة فكانوا يخرجون إليها مستخفين على خوف من أبي جهل وملئهم أن يفتنوهم ، أما عمر فإنه لما أراد الهجرة تقلد سيفه وتكعب قوسه ، وانتضى في يده أسهما واختصر عنزته ، ومضى قبل الكعبة والملا من قريش بفنائها (٤) فطاف بالبيت سبعمتمكنا ، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم : شأهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه

(١) ابن حجر : الاصابة ٥١٨/٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٧٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤/١٥١

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٧٠ ، ابن الأثير : أسد الغابة ٤/١٥٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/١٥٣

المعاطس ، من أراد أن تتكلمه أمه ، أو ييتم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادى . فما تبعه أحد إلاّ قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه حتى أتى المدينة ، فسأله أهلها عن النبي عليه الصلاة والسلام فقال : هو في أثري ، ونزل رضى الله عنه في دار رفاعة بن المنذر من بنى عمرو بن عوف (١) .

ولما دخل النبي عليه الصلاة والسلام المدينة ، وآخى بين المهاجرين بعضهم وبعض ، آخى بين أبى بكر وعمر ، ولما آخى بينهم وبين الأنصار آخى بين عمر وبين ابن ساعدة (٢) ، وخطله منزله على كئيب من المسجد ، وكان يستشيريه وينزل على مشورته ، وأحياناً ما كان يخالفه إذا رأى المصلحة في العدول عن رأيه الى رأى غيره . استشاره النبي في أسرى بدر (٣) وعدل عن رأيه الى رأى أبى بكر ، واستشاره في الصلاة على ابن أبى وأثر مشورة غيره وصلى عليه (٤) تكريماً لولده ، وإحساناً الى عشيرته . واستشار النبي أصحابه في أمر

(١) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٢٣٠

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٧٢

(٣) المقرئى : امتاع الاسماع ١/٩٧

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/١٤٥ ، ١٤٦ ، مكتبة الكليات

الأزهرية تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد .

يجمعهم للصلاة ، فقال بعضهم نتخذ ناقوسا كناقوس
النصارى ، وقال البعض الآخر نتخذ بوقا كأبواق
اليهود ، وجاء عمر فأخبر النبي صلوات الله عليه أنه
رأى في منامه من لقنه ألفاظ الأذان ، فأقرها ، وهبط
الوحي فأقرها كذلك (١) . وكان عمر قريبا من قلب
النبي عليه الصلاة والسلام ، فلم يدعه في غزوة ولم
يتخلف عنه في مشهد ، وكان يقيه بنفسه ، ويفتديه
بروحه ، وقد أمره صلوات الله عليه على بعض السرايا
ثقة فيه ، واطمئنانا الى كفاءته وحسن قيادته (٢) .

وما أجمع الرواة على شيء ما أجمعوا على أن
المسلمين والمشركين كليهما قد كانوا يهابون عمر ،
ويخشون غضبه ، لصلابته في الحق ، وشدته على أهل
الباطل .

جاء أبو سفيان الى المدينة بعد ما أعانت قريش بكراً
على خزاعة ، وطلب من عمر أن يجيره حتى يؤدي
رسالة قومه الى محمد ، فقال له عمر : أنا أجيرك ،
والله لو لم أجد غير الزر أقاتلكم به لقاتلتكم (٣) . وأفشى
حاطب بن أبي بلتعة سرا استكتمه النبي الناس الى أهل

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٤١٨/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ٢٧٢/٣

(٣) ابن الأثير : الكامل ١٦٣/٢

مكة فطلب عمر من النبي أن يتركه يضرب عنقه ، ولم يصرفه عنه إلا قوله عليه الصلاة والسلام له : « دعه يا عمر فإنك لا تدري نعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (١) » . وحتى الجوارى والنساء فإنهن كن يهبن عمر ، ويخشون غيرته على الحق .

نذرت جارية لئن عاد رسول الله من غزوته منتصرا لتضربن بالدف بين يديه ، وجاء النبي وهى تضرب ، وجاء أبو بكر وهى تضرب ، وسمعت صوت عمر فأخجلت ووضعت الدف تحت فخذاها ، ورآها عمر على هذا الحال فقال : يا عدوة الله تخافين عمر ، ولا تخافين النبي . فقالت : أجل ، لأنه رعوف رحيم وأنت فظ غليظ . فقال النبي : لله درك يا ابن الخطاب ، ما تسلك فجاً إلا ويسلك الشيطان فجاً آخر (٢) .

وقد أكثر النبي عليه الصلاة والسلام من إطراء عمر ، وأصهر إليه ، وبشره بالجنة (٣) ، ورشحه للخلافة ، ووصفه بالعبقرية ، وبين أن الحق معه يدور حيث دار ،

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ١/٣٦٢ ، ٣٦٣ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/١٣٤ .

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣١٩ .

ولم يفضل عليه أحداً من أصحابه غير أبى بكر رضى الله عنه . وقد أعطى الله عمر العلم الكثير ، والمعرفة الواسعة وحسن النظر فى الأمور ، وهذا هو السر فى أنه قد كان أحد قضاة النبى ، وأحد الذين كانوا يفتون فى عهده ، وأحد الذين كان ينزل القرآن بتصويب آرائهم (١) .

وكما كان عمر شديد الإخلاص للنبى عليه الصلاة والسلام فى حياته فقد كان شديد الإخلاص لأبى بكر كذلك بعد وفاته ، وقف الى جانبه فى سقيفة بنى ساعدة حتى أجمع الأنصار على استخلافه ، ووقف الى جواره فى البيعة العامة حتى اتفقت عليه الكلمة والتقت على بيعته طوائف الأمة (٢) . ولم يكن عمر يتلقى الأوامر من أبى بكر من غير مراجعة ولا مناقشة ، وإنما كان يحاوره ويجادله ، ولا ينصاع لرأيه إلا بعد أن يتبين له أن الحق الى جانبه . ناقشه فى بعث أسامة (٣) ولم يكف عنه حتى تأكد أن الحق معه ، وناقشه فى قتال مانعى الزكاة ، ولم ينقد له حتى أيقن أن الصواب الى جواره .

ومع تقدير أبى بكر لعمر وإجلاله لشأنه فإنه كان اذا

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٦٢/٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٢٣

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٦/٣٠٤

آتس منه فتسوراً فى العزم ، أو وهناً فى طلب الحق ،
خاطبه فى عنف وتحدث الىه فى شدة ، ومن ذلك قوله
له وهو ينهاه عن قتال مانعى الزكاة : جبار فى الجاهلية
خوار فى الاسلام ، والله لأقتلن من فرق بين الصلاة
والزكاة ، فإنها حق المال ، والله لو منعونى عناقاً كانوا
يؤدونى الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه (١) .

ولشدة حاجة أبى بكر لعمر ورغبته فى أن يكون الى
جواره ، استأذن أسامة بن زيد فى أن يدعه له ، وكان
النبي عليه الصلاة والسلام قد جعله تحت إمرته . وقد
بذل عمر وقته وجهده فى عون أبى بكر ونصحه ، حتى
اللحظة الأخيرة من حياته ، ولما أحس الصديق رضى الله
عنه أن أجله قد انتهى ، وأن منيته قد اقتربت ، أهمله
أمر المسلمين ، وأضناه التفكير فى شأنهم ، وبحث عن
الرجل الذى اذا تولى أمورهم حفظ عليهم وصدتهم ،
وأخضع لهم عدوهم ، وقاد سفينتهم الى شاطئ الأمان ،
فلم ير من يستطيع حمل هذا العبء الثقيل سوى
عمر (٢) ، فاستشار فيه المهاجرين والأنصار ، واستشار
فيه قريشاً وغيرها من سائر الناس ، فكلهم أطروا
رأيه فيه ، وثقته فى كفاءته ، وحسن قيادته ، فكتب

(١) ابن الأثير : الكامل ٢/٢٣٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣/٢٧٤

عهده اليه ، وأوصاه بالمسلمين ، وأوصى المسلمين به (١) ،
واستخلف عمر فكان خير خلف لخير سلف ، فقد حمى
دولة الاسلام ، ووسع أرجاءها ، ودوخ خصومها
وأعداءها ، وساس الناس سياسة أقرت العدل ، وأزالت
الظلم ، وجعلت أمم الأرض تفتح ذراعيها لاستقبال
المسلمين ، لما سمعته عن خليفته من حب الخير وإيثار
البر والمساواة بين المسلمين وأهل الذمة في بلاده .

والذى يطالع سيرة هذا الرجل العظيم يلاحظ أنه قد
سبق من جاء بعده في أمور كثيرة ، فهو قد مصر الأمصار
ودون الدواوين ، وهو قد فتح الفتوح حتى أظلت راية
الاسلام الجزيرة العربية والشام ومصر ، ومساحات
هائلة من بلاد الفرس والروم (٢) ، وهو قد وزع العطاء
على أساس السبق الى الاسلام والجهاد مع النبي عليه
الصلاة والسلام (٣) .

وكان دقيقا في تعيين العمال ، واختيار الولاة والقضاة
ولم يكن يكتفى بهذا الاختيار الدقيق ، وإنما كان
يراقب معاونيه ، ويحاسبهم جهارا نهارا في المواسم

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٨/٧

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٤/٧

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣٠٤/٣

والمناسبات العامة ، فإذا آنس من أحدهم تباطؤاً في عمله أو تقصيراً في أداء واجبه ، أو أخذ شيئاً من أموال المسلمين من غير حق ، أعفاه من منصبه (١) ، وقاسمه أمواله (٢) .

وعلى الرغم من أن عمر لم يكن يشرك أحداً من أقاربه في وظائف الدولة ، فإنه كان إذا أصدر أمراً جمعهم وحذرهم من المخالفة اعتماداً على قربهم له ، وأنبأهم أنه سوف يضاعف العقاب لكل من يجترئ منهم على عدم تنفيذ أمره ، أو التقصير في أدائه . وقد كان عمر يفرض من بيت المال لكل رجل وامرأة ، وكل طفل وطفلة (٣) حتى من أزم من أهل الذمة ، فإنه كان يرتب له من بيت مال المسلمين ما يسد خلته ، ويقول : ما أنصفناه إذا أكلنا شبيبته صغيراً وتركناه كبيراً .

والذي يطالع الرواتب التي كان يأخذها المسلمون في هذا العهد يلاحظ أن عمر قد كان حريصاً على أن يعيش الناس عيشة راضية ناعمة ، ومع هذا فإنه كان يقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٤/٧

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣٠٧/٣

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣٠١/٣

الأغنياء ورددتها على الفقراء ، وكان يتطلع الى أن يكون عطاء الفرد في كل عام أربعة آلاف ، ألف لنفسه ، وألف لفرسه ، وألف لسفره ، وألف لبيته . وكان شديد المراقبة لله عز وجل في رعيته وفي أموالها . والرواة يذكرون أنه كان يخرج الى إبل الصدقة يتعهدها ويداويها ويلاحق ما ند منها حتى يعيده اليها ، لا يخاف حراً ولا قرأ ، ولا يثنيه تعب ولا نصب (١) ، وكان يقول : إن أشياء كثيرة تحدث في شتى أرجاء الدولة ، وإن الناس والعمال لا يبلغونه بها ويتمنى أن يقيم في كل إقليم من بلاد الاسلام شهرين فينصف المظلوم من الظالم ويعطى كل ذى حق حقه .

وقد تنبأ النبي عليه الصلاة والسلام بما سوف ينعم الناس به في خلافة عمر من الرضا والرغد ، وكيف أن دولة الاسلام سوف تعظم وتتسع حتى تكون أكبر دولة في الأرض فقال : رأيت في المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/ ١٧١

وقد حسد أعداء الاسلام المسلمين على هذا العهد الزاهر ، وامتلات قلوبهم حقداً على دولتهم ، وعقدوا الخناصر على إطفاء نورها وتقويض صرحها وزرع الفتن والثارات في شتى جوانبها ، ولا سبيل الى ذلك إلا بقتل هذا الخليفة ، الذى دوخهم ، وفتح بلادهم ، وجعلهم أتباعا بعد أن كانوا متبوعين ، ونسجوا مؤامرة شارك فيها اليهود والنصارى والمجوس (١) ، وعهدوا إلى أبى لؤلؤة بتنفيذها وكان كعب الأخبار وهو أحد اليهود الذين أسلموا يتولى الخداع والتمويه حتى يتحقق الهدف وتدرك الغاية . وأفلح هذا المجوسى فى القيام بالمهمة التى ألقيت على عاتقه ، فطعن عمر وهو قائم يؤدى صلاة الفجر ، والناس من خلفه عدة طعنات (٢) ، حمل بعدها إلى داره ، ولم يلبث غير ثلاثة أيام حتى لبي نداء ربه :

ويقول الرواة : إنه رضى الله عنه لما طعن أرسل رجلا يسأل عن قاتله من يكون ، فلما تبين له أنه مجوسى حمد الله لأن صاحب هذه الجريمة لم يسجد لله تعالى سجدة واحدة (٣) . وقد أجمع أصحاب النبى عليه الصلاة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٧

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣٧/٧

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣/٣٤٦

والسلام ومن بينهم على وعثمان أنهم لم يروا رجلا كان أعدل ولا أنزه ولا أشد إخلاصا في الاطلاع بما أسند إليه من عمر .

ويبقى مسك الختام وهو دوره رضى الله عنه في خدمة القرآن ، وقد تضافرت الروايات على أن عمر قد كان يحب القرآن ويكثر من تلاوته (١) ، وأنه قد كان أحد السبعة الذين حفظوه في حياة النبي عليه الصلاة والسلام من بدايته الى نهايته ، وأنه كان يرى الرأى فينزل القرآن موافقا لرأيه ومطابقا لمشورته (٢) . وأنه سمع النبي عليه الصلاة والسلام يتلو قوله تعالى : قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون» (٣) . فأصغى اليه حتى اذا انتهى إلى قوله تعالى : « ثم أنشأناه خلقا آخر » هتف قائلا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزل الوحي كما قرأ .

ومما يذكره التاريخ ولا ينساه لعمر في العمل على حفظ القرآن وبقائه غضا نقيا كما أنزل سعيه الى أبى بكر رضى الله عنه . وهو خائف يرجف فؤاده ويقول :

(١) ابن الاثير : أسد الغابة ٤/١٥٥

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٢/٤٦٢

(٣) سورة المؤمنون : ١ ، ٢

يا خليفة رسول الله أدرك القرآن قبل أن يذهب ، فقال
أبو بكر : وكيف . قال : لقد استحر القتل في الحفاظ في
الليمامة وإنى أخشى أن يذهب القرآن بذهابهم . فقام
الخليفة من فوره واستدعى زيد بن ثابت وألقى على
كاهله مهمة جمع القرآن ونسخه في المصحف . فسلام
على عمر في الأولين ، و سلام عليه في الآخرين ، و سلام
عليه يوم يقوم الناس لرب العالمين .



I have just received from Mr. [Name] a copy of
 the [Title] which I have just read and find it
 very interesting and well written. I have
 been very much interested in the [Topic] and
 the [Author] has done very well in
 showing the [Details] of the [Subject].
 I have been very much interested in the
 [Topic] and the [Author] has done very well
 in showing the [Details] of the [Subject].

Yours truly,

I have just received from Mr. [Name] a copy of
 the [Title] which I have just read and find it
 very interesting and well written. I have
 been very much interested in the [Topic] and
 the [Author] has done very well in
 showing the [Details] of the [Subject].
 I have been very much interested in the
 [Topic] and the [Author] has done very well
 in showing the [Details] of the [Subject].

عثمان وتوحيد المصاحف :-

كان عثمان بن عفان أحد رجالات قريش وذوى الثراء والغنى فيها (١) ، وكان قريبا الى قلوب قومه ونفوسهم يحبهم ويحبونه ويجلهم ويجلونهم ، والسرى فى هذا هو ما أجمع عليه الرواة من سماعته . ووداعته ، ودمائة خلقه ، ولين عريكته ، وإيثاره الخير لمن يعرفه ومن لا يعرفه (٢) . وقد ولد عثمان فى مكة ، وإن كان المؤرخون لا يعرفون على وجه التأكيد العام الذى ولد فيه ، وقد يكون هذا هو أحد الأسباب التى من أجلها اختلفوا فى سنه عند وفاته ، وهل كان ابن اثنين وثمانين (٣) أم ست وثمانين (٤) ، أم أنه قد أربى على التسعين .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠١/٧

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٣/٣

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤١٥/٤

(٤) تاريخ اليعقوبى : ١٧٦/٢ دار صادر - بيروت .

ولا خلاف بين النسابين في أنه هو عثمان بن عفان ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف (١) وأن أمه هى أروى بنت كريب ابنة البيضاء ابنة عبد المطلب (٢) . فهو يجتمع مع النبى عليه الصلاة والسلام من جهة أبيه فى عبد مناف ، ويجتمع معه من جهة أمه فى جدته البيضاء بنت عبد المطلب .

وقد تزوج عثمان ثمانى نسوة ، وأنجب تسعة أولاد وسبع بنات (٣) . والتاريخ لا يعرف عن عثمان فى الجاهلية غير النذر اليسير ، شأنه فى هذا شأن غيره ممن عاصروه وأدركوا زمانه ، وكل ما وعته ذاكرته هو أنه قد احترف التجارة وربح منها المال الكثير (٤) والتجارب المختلفة التى أعانته على أن يحتل مكانا رفيعا فى عشيرته وفى غيرها من أهل بلده .

(١) المقرئى : امتاع الاسماع ١٦/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٣/٣

(٣) ابن سعد : الطبقات ٥٤/٣

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠١/٧

ويظهر أن عثمان قد كان ذا عقل رشيد ، وفكر سديد ، وأن أسفاره التجارية ، وزيارته المتكررة للأخبار والرهبان ، قد أفادته في الحكم على الأشياء ، وتمييز الخير من الشر والطيب من الخبيث ، والدليل على هذا أنه لم يكن يجتمع بأبى بكر رضى الله عنه ويسمع منه ما عرفه عن الاسلام حتى انشرح له صدره ، ونزعت اليه نفسه ، وكان أحد القلائل الذين صاحبوه الى رسول الله فسمع منه وأعلن دخوله في دينه (١) ، وقد غاظ إسلامه بنى أمية وهم أصله وعشيرته ، فأمعنوا في تعذيبه ، واشتدوا في إعناته ، حتى إن عمه الحكم بن أبى العاص أوثقه رباطاً وقال له : أترغب عن ملة آبائك الى دين محدث ؟ • والله لا أطكك حتى تدع ما أنت عليه ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى صلابته في دينه حل وثاقه (٢) • ولأنه كان من الرقة بحيث يأبى عليه طبعه دفع الأذى بمثله فإنه استأذن النبی عليه الصلاة والسلام في الهجرة الى الحبشة ، فأذن له ، فهاجر إليها هو وزوجه رقية في القافلة الأولى ، وهاجر إليها هو وهى في القافلة الثانية (٣) ، ولما بلغت الأخبار أن الله أذن لرسوله وأصحابه في

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٢١٥/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٣/٣

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١٥١/١

الهجرة الى المدينة ، وأن المؤمنين قد خرجوا اليها
ارسالا هاجر هو وزوجه رقية الى المدينة ، ونزل على
أوس بن ثابت أخى حسان بن ثابت شاعر النبي عليه
الصلاة والسلام (١) . ولما هاجر النبي عليه الصلاة
والسلام خط له منزله وجعل بابه مواجها لبابه .

وقد تضافرت الروايات على أن عثمان رضى الله عنه
قد شهد المشاهد كلها مع النبي صلوات الله وسلامه
عليه ، ما خلا بدرآ ، فإنه قد تخلف عنها ، لأنه كان
مشغولا بتمريض زوجه رقية ، وقد شاء الله أن تكون
وفاتها وانتصار المسلمين على المشركين فى بدر فى يوم
واحد (٢) . ولما آب النبي عليه الصلاة والسلام الى
المدينة أسهم لعثمان من الغنائم شأنه فى هذا شأن من
أقعدده العذر عن الخروج .

وقد رقى صلوات الله وسلامه عليه لعثمان عندما رآه
وقد انقطع صهره منه فزوجه من ابنته الثانية أم كلثوم ،
فلما ماتت هى الأخرى قال : والله لو كان عندنا ثالثة
لزوجناكها (٣) ، وجاء فى حديث على أن النبي عليه
الصلاة والسلام قال : لو أن لى من البنات أربعين

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١٨٩/٢

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٣/٣

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية ٥٢٩/٢

لزوجت عثمان واحدة إثر واحدة حتى لا تبقى منهم واحدة . وقد كان لعثمان مواقف سجلها له التاريخ في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وحياة الشيخين أبي بكر وعمر من بعده ، ففي الحديبية بعثه صلوات الله وسلامه عليه الى قريش لمفاوضتها نيابة عنه ، فلما انطلقت الشائعات أنه قد قتل جمع المسلمين وبايعهم على الموت ، ووضع يده اليمنى في يده اليسرى وقال وقد رفعهما : هذه يد عثمان أبايع له بها نيابة عنه (١) . وفي هذه الحادثة يقول الله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا (٢) » .

ولما كثر الناس وضاق بهم مسجده عليه الصلاة والسلام قال : من يضيف إلى هذا المسجد حجرة وله بيت في الجنة . كان عثمان هو الذى تطوع لهذا العمل (٣) . وفي جيش العسرة دعا النبي عليه الصلاة والسلام إلى المشاركة في تجهيزه ، فجهز عثمان نصفه (٤) ، وكان عدده ثلاثين ألفا ، أضف الى هذا كله

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٠٢/٣

(٢) سورة الفتح : ١٨

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٥٩١/٣

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٤/٦

شراعه بئر « رومة » وجعله إياها صدقة جارية لأهل المدينة (١) . من أجل هذه المآثر رضى النبي عليه الصلاة والسلام عن عثمان ، ويشره بالجنة (٢) ، وقال وقد علاّ جبل أحد فاهتز من تحته : اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان ، وكان الواقفون عليه آنذاك هم : النبي ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان (٣) . وقد غادر صلوات الله عليه هذه الدنيا وهو عنه راض وبه قرير عين .

وكما كان عثمان رضى الله عنه قريبا الى قلب النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد كان قريبا الى قلب الصديق والفاروق كذلك ، كان يعاونهما ولا يقصر في إجلالهما والنصح لهما ، والدليل على هذا أنه لما قعد على عن بيعة أبى بكر مشى إليه ، وما زال يحذره الفرقة وانقسام الأمة حتى بايعه ، ودخل في طاعته (٤) ، ولما استشاره الصديق في العهد الى عمر والرغبة في استخلافه وافقه على رأيه فيه ، واطمئنانه اليه ، وكتب كتاب بيعته بيده (٥) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٣/٧

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٥٨٧/٣

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٥٨٨/٣

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٠٢/٦

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣/٤٢٨، ٤٢٩ ط دار المعارف .

وكان الناس يهابون عمر ، ويترددون في طلب شيء منه ، فكانوا اذا كانت لهم حاجة عنده بعثوا اليه عثمان فكلمه ، ولما طعن عمر فكر في أن يسند الأمر اليه ، لكنه خشى أن يحمل بنى أمية على رقاب الناس ، فعدل عن العهد اليه وجعله أحد الستة الذين رشحهم للخلافة (١) .

ولما بويغ رضى الله عنه في يوم السبت وهو اليوم الأول من ذى الحجة من العام الثالث والعشرين للهجرة ، خطب الناس خطبة قصيرة دعاهم فيها الى نبذ الدنيا والإقبال على الآخرة ، وأرسل إلى عماله على الأقاليم كتباً أمرهم فيها ونهاهم ، وأنذرهم وحذرهم (٢) ، وكذلك أرسل الى قادة الجند وأمراء الجيوش ، وتبين مما كتبه الى هؤلاء وأولئك أنه قد عزم على انتهاج سياسة لا تقل حزماً عن سياسة سلفه . ولكي تشرح صدور الناس ، وتسعد نفوسهم ، فإنه قد ضاعف العطاء مائة مائة (٣) ، وأبقى على عمال أمير المؤمنين عمر فلم يعزل منهم أحداً طوال عام كامل ، رغبة منه في استقرار الأمور ، وإشارة إلى أن سياسته وسياسة سلفه واحدة .

(١) تاريخ اليعقوبى : ١٦٠/٢

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢٤٣/٤

(٣) ابن سعد : الطبقات ٦٤/٣

وراح رضى الله عنه يتابع الفتوح ، ويرفع رايات الإسلام على الكثير من البقاع والأصقاع^(١) . وظل ينسج على هذا المنوال ، فى الشطر الأول من خلافته .

ولم تكن الحروب فى عهده مقصورة على البر وحسب وإنما ظهرت فى أيامه الأساطيل الإسلامية ، التى سقت أساطيل الإمبراطورية الرومانية كؤوس الهزيمة ، وأرهصت الى اليوم الذى بسطت فيه دولة الإسلام سيادتها على البحر ، كما بسطتها على البر^(٢) .

ولا خلاف بين الرواة فى أن عثمان رضى الله عنه قد كان محبوبا من الأمة الإسلامية على اختلاف طوائفها وأقاليمها طوال الأعوام الستة الأولى من خلافته^(٣) ، فقد لان لهم ، ووسع أرزاقهم ، وكانوا مشغولين بالفتح فلم يفكروا إلا فى توسيع رقعة الدولة الإسلامية ، ورفع رايتها فى المشرق والمغرب على السواء ، وفى الأعوام الستة الأخرى من هذه الخلافة نشط أعداء الإسلام فى الكيد له والعمل على وقف زحفه ، وألفت الجمعيات السرية التى كان يترأسها عبد الله بن سبأ^(٤) ، وكعب

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٥٧/٧

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٢٩٢/٤

(٣) ابن سعد : الطبقات ٦٤/٣

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٦٧/٧

الأخبار ، وغيرهما من اليهود ، الذين سبق وتآمروا على الفاروق ، وتمكنوا من قتله وهو قائم يؤم المسلمين في صلاة الفجر ، وراحوا يعيبون عثمان ، ويلومون سياسته (١) ، معتمدين على أشياء فعلها رضى الله عنه وهو مطمئن الى أن الصواب في جانبه ، ومنها على سبيل المثال رفعه الحظر الذى كان عمر قد ضربه على كبار الصحابة من قريش ، فلم يكونوا يغادرون المدينة إلا بإذن مؤقت ، ولمدة محدودة ، ومنها إسناد بعض المناصب الكبرى فى الدولة الى رجال من بنى أمية كان يثق فى كفاءتهم وكفايتهم ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد استعمل بعضهم ، ومنها السماح لأصحاب الأراضى فى الحجاز أن يستبدلوها بأراض فى البلاد المفتوحة الى آخره .

وراح هؤلاء الأعداء ينفخون فى جمر الفتنة حتى تلتظى وراح يرمى بالشرر ، وحتى أبرزت الفتنة وجهها وعينيها . وعبثا حاول عثمان إطفاء هذه النار لأنها كانت قد قويت واستشرت حتى انتشرت فى شتى أنحاء الدولة الإسلامية .

واجتمع الثوار وزحفوا من مصر والكوفة والبصرة

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/٣٣٣ - ٣٣٩

حتى دخلوا المدينة ، وهم عازمون على عزل الخليفة أو قتله (١) . وقد بذل على وغيره من كبار الصحابة قصارى جهودهم للتوفيق بين الثائرين والخليفة ، غير أنهم لم يستطيعوا بلوغ الهدف ولا إدراك الغاية (٢) ، لأن نفوس الثائرين كانت قد انطوت على الشر ، وأيديهم كانت قد تشابكت على الإثم ، فمنعوا الماء عن الخليفة ، ثم حالوا بينه وبين الصلاة في المسجد ، ثم حاصروا داره ، ولم يكفوا عنه حتى قتلوه (٣) في الشهر الحرام ، وهو صائم يقرأ القرآن ، ثم دفنوه في حشى كوكب (٤) ليلا حيث كان يقبر اليهود .

ولما بلغ عليا ما أصاب هذا الصحابي الجليل لعن قاتليه ، وتبرأ منهم ، وأعلن أنهم فتحوا على الأمة باب شر وفتنة لا يغلق الى يوم القيامة . وقد نقش التاريخ مآثر عثمان ومفاخره بأحرف من نور في صحائفه ، وكان من أجل هذه المفاخر وأبقاها أثرا عنايته رضى الله عنه بالقرآن ، فقد كان أحد قرائه المجيدين (٥) ، وكان أحد حفاظه المتقنين ، وكان يكتبه

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٠/٧

(٢) ابن سعد : الطبقات ٦٥/٣

(٣) ابن حجر : الإصابة ٤٦٣/٢

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٥٩٥/٣

(٥) ابن سعد : الطبقات ٧٦/٣

بين يدي سيد المرسلين فور تلقيه من الروح الأمين (١) ،
فيزداد له حفظا الى حفظ وفقها الى فقه .

ولما اجتمعت القبائل في الحروب والتقت في المعارك
والوقائع ، وراح بعضهم يلوم قراءة بعض حتى تنازعوا
وتلاعنوا وأكفر كل فريق صاحبه ، هرع حذيفة بن
اليمان الى دار عثمان بعد عودته من « أرمينية » وقال
له : يا أمير المؤمنين أدرك الأمة قبل أن تختلف في
القرآن (٢) ويضرب بعضها من أجله رقاب بعض ، قال:
وكيف . فقص عليه القصص ، فنهض من فورهِ وكلف
زيد بن ثابت ونفرا معه من قريش ، وأمرهم أن
ينسخوا الصحف التي جمعها أبو بكر ، فإن اختلف
بعضهم مع بعض في لفظ أو عبارة كتبوها بلغة
قريش (٣) .

وأتم عثمان جمع القرآن في مصحف ، ونسخ منه
أربعة أو سبعة ، وأرسل كل واحد منها الى إقليم ،
وألزم أهله به ، وأحرق ما عداه من المصاحف الأخرى (٤) ،
وثار دعاة الفتنة ورؤس الشر وراحوا يلومون عثمان

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٩/٧

(٢) تفسير ابن كثير : ١٠/٤ ، الألوسي : روح المعاني ٢٣/١

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٢١٧/٧

(٤) تفسير القرطبي : ٤٥/١

على هذه المفخرة الكبرى التي تداركت الأمة وحالت
بينها وبين الخلاف والفرقة ، وبلغ الأمر كبار الصحابة
فقال على : إن ما فعله عثمان قد كان بمشورتنا وعلى
ملاً منا ، ولو كنت مكانه ما فعلت إلا ما فعل (١) .

فرحم الله ذا النورين وألبسه تاج الكرامة في الآخرة ،
وجعل درجته في الجنة عند آخر آية تلاها في الدنيا .



على والقرآن :

وكان على رضى الله عنه أحد أبطال المسلمين وشجعانهم ، وأحد ساداتهم وقاداتهم وذوى العلم والمعرفة منهم (١) ، وأنه قد كان فصيح اللسان ، غزير البيان ، يقود القلوب كما يهوى ، ويدير المشاعر كما يحب ، وأنه لم يكن يفوقه في حلاوة حديثه وطلاوة منطقه وقوة حجته وسطوع أدلته (٢) سوى أخيه وابن عمه محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ومع أن عليا قد ولد في مكة فإن التاريخ لا يعرف على سبيل اليقين العام الذى ولدته فيه أمه ، وقد يكون من الأدلة على هذا اختلاف الرواة حول سنة حين أسلم ، فمنهم من يقول إنه قد أسلم وهو ابن تسع سنين ، أو ابن عشر (٣) ، أو ابن اثنتى عشر ، ومنهم من يرى أنه قد دخل في الدين الحق وهو ابن خمس عشرة سنة (٤) . ويقول الرواة : إنه قد سمى عند ولادته حيدرة ، وهو أحد الأسماء التى كان يطلقها العرب على الأسد ، ولعل والدته قد اختارت له هذا الاسم طمعا في أن يكون ذا

(١) ابن حجر : الإصابة ٥٠٩/٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ١٠٠/٤

(٣) ابن سعد : الطبقات ٢١/٣

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٩٤/٤

قوة تهابه الأقران ، وتجفل منه الأبطال والشجعان ،
ثم أطلق عليه فيما بعد على (١) ، وفي هذا الاسم من
سمات الرفعة وعلامات المجد ما فيه .

ولا خلاف بين النسابين في أنه هو على بن أبي طالب
ابن عبد المطلب بن هاشم ، وأن أمه هي فاطمة بنت
أسد بن هاشم (٢) ، فهو إذن هاشمي من جهة أبيه ،
وهاشمي من جهة أمه ، وقد تزوج ثمانى نسوة ، وأنجب
أربعة عشر ذكرا ، وتسع عشرة امرأة ، غير أن هؤلاء
جميعا لم يكونوا من زوجاته الحرائر وحسب ، وإنما
كان بعضهم منهن ، وكان البعض الآخر من أمهات
أولاد (٣) . وقد كان أبو طالب رجلا ذا عيال لا يكفي
ما يحصله من المال للإنفاق على ما لديه من البنين
والبنات ، فكلم النبي عليه الصلاة والسلام عمه العباس
وكان ذا غنى وثراء في التخفيف عنه ، فأجابه الى ما
طلب . وكان على من نصيبه عليه الصلاة والسلام ،
فتربى في داره ، ونما واشتد تحت سمعه وبصره (٤) ، ولعل
ما أوتى على من راحة العقل وسلامة الفكر وفصاحة

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٩١/٤

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ١٥٣/٥

(٣) ابن سعد : الطبقات ١٩/٣ ، ٢٠

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٢٣/٧

الحديث ونبل الغاية واستقامة القصد يرجع الى هذه التربية الذكية النقية التي فاز بها وحده في دار النبي عليه الصلاة والسلام وبين حمايته ورعايته .

ويقول الرواة : إن عليا لم يسجد لصنم قط (١) ، وأنه من أجل ذلك قيل فيه على كرم الله وجهه .

وهذا كلام لا سبيل الى إنكاره ، لأنه كان من النبي عليه الصلاة والسلام بمنزلة الإبن ، يعيش في بيته ، ويتلقى نصائحه وتوجيهاته .

وجاء الإسلام ودخل على علي النبي عليه الصلاة والسلام وهو قائم يصلى هو وزوجه خديجة ، ولم يكن قد رآهما من قبل على هذه الصورة ، فلما أنتهيا من صلاتهما قال علي (٢) : ما هذا يا محمد ؟ فأخبره أن هذا هو الدين الذي أنزله الله عليه وحثه على اعتناقه والدعوة إليه . وتختلف الروايات في موقف علي كرم الله وجهه من هذا الدين الجديد ، فيقول بعضها : إنه قد دخل فيه فور دعوة النبي له إليه ، ويقول البعض الآخر إنه قد استمهله حتى يشاور أباه (٣) .

(١) ابن سعد : الطبقات ٣/٢١

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٩٢

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/٩٢

ويبدو لى أن الروايات الأولى هى الصحيحة ، فما كان لعلى وقد تربى فى حجر محمد وتثأ وتما تحت سمعه وبصره أن يتردد فى شىء دعاه إليه ، أو يتلكأ فى تنفيذ أمر أمره به . وسواء أكان على فى التاسعة أو فى الخامسة عشرة من عمره فإن أكثر المحدثين على أنه لم يسبقه الى الإسلام سوى خديجة رضى الله عنها (١) .

ومنذ الوهلة التى أسلم فيها على فإن النبى عليه الصلاة والسلام قد اتخذته رفيقا يصحبه إذا خرج من منزله الى شعاب مكة أو الى دور أصحابه الذين دخلوا فى دينه . وجاء فى بعض الروايات : أن أبا طالب رأهما وهما يصليان بعيدين عن الناس فسأل عليا ما هذا ؟ فقال : هذا هو الدين الذى يدعو إليه محمد ، فلم يدخل فيه (٢) ولم ينه ولده عن اعتناقه ، وأوصاه أن يسمع ل محمد ويطيع (٣) . ولما أمر الله نبيه أن يدعو عشيرته الأقربين ، وصنع صلوات الله عليه طعاما ، ودعا بنى هاشم اليه ، كان على هو الوحيد من هؤلاء الأقارب الذى أعلن عزمه على الوقوف الى جانب محمد والنصرة لدينه .

(١) ابن سعد : الطبقات ٢١/٣

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٣٤/٧

(٣) ابن الأثير : الكامل ٣٨/٢

وما أشك في أن عليا قد بذل الكثير في سبيل الإسلام ولم يعبا بأية تضحية يقدمها في سبيله .

ذكر الرواة : أنه لما اشتدت المقاطعة ولم يجد بنو هاشم وبنو المطلب شيئاً يأكلونه ، كان على يخرج خلسة من الشعب ويحمل الميرة الى النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه ، وهو على علم من أن قريشا قد أقعدت من يرصد حركات النبي وأصحابه ، وأن أمره لو انكشف فسوف يضرب عنقه ، وذكروا كذلك : أن الله تعالى لما أذن للمسلمين في الهجرة من مكة الى المدينة وراحوا يخرجون زرافات ووحدانا لم يأذن لأبى بكر ولا لعلى لأنه أعد كلا منهما لأمر لا يستطيعه غيره ، أما أبو بكر فلمرافقته صلوات الله وسلامه عليه الى دار هجرته ، وأما على فللنوم في حجرته والتسجى (١) ببردته حتى لا يرتاب المشركون في أنه عليه الصلاة والسلام لم يفارق داره ولم يلحق بأصحابه ، وقد نفذ على الأمر الصادر اليه من النبي فنام في فراشه وتغطى ببرده ، وبقي على ذلك حتى أصبح الصبح وعشرات الشباب الجلد قد أحدقوا بالدار ، ومعهم السيوف المرهفة ينتظرون خروج محمد حتى يضربوه جميعاً ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل (٢) .

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٩٥/٤

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٩١/٢

ترى هل كان على على ثقة من أن هؤلاء سوف لا يقتحمون الدار حتى وإن طال بهم الإنتظار : لا أشك أنه قد كان ينتظر الموت بين لحظة وأخرى لكنه لا يعبا بنفسه في سبيل إنقاذ النبي ودفع الغائلة عنه ووصوله الى حيث أذن له ربه . وإذا كان على قد نجا من سيوف المشركين فإنه لم ينج من أيدائهم له وضربهم إياه (١) .

وعلى الرغم من أن حياته قد كانت مهددة بالأخطار من أهل مكة ، فإنه لم يغادرها حتى أدى الأمانات التي كانت مودعة عند رسول الله (٢) ، وقد اضطره هذا الى الإقامة ثلاثة أيام ثم مضى الى المدينة مشيا على رجليه حتى أتى قباء ونزل في دار كلثوم بن الهدم . وسمع النبي عليه الصلاة والسلام أنه قد جاء فأتاه، فلما رأى ما أصاب رجليه بكى ومسح عليهما فلم يشتك كرم الله وجهه من إحداهما أو كليتهما حتى فارق هذه الدنيا (٣) . ولما آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار لم يؤاخ بين على وبين أحد فبكى، فربت النبي صلوات الله عليه على كتفه وقال : « لا تحزن فأنت أخى وأنا أخوك » (٤) ، فكان هذا شرفا

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ٣٩/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ٢٢/٣

(٣) ابن الأثير : اسد الغابة ٩٦/٤

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ١٠٩/٢

لم يصل اليه أحد قبله ولا بعده . وأضاف صلوات الله عليه الى هذه المنقبة منقبة أخرى ، فقد أصهر اليه وزوجه من فاطمة كبرى بناته وأقربهن الى قلبه (١) ، وكان كل من أبى بكر وعمر وعثمان قد خطبها لنفسه فاعتذر اليهم منتظرا أمر الله سبحانه . وقد كان على فقيرا فياع درعه وأعطى ثمنه للنبي عليه الصلاة والسلام مهورا لها ، ويظهر أنها رضى الله عنها قد استأنت من ذلك ، فقد دخل عليها أبوها صلوات الله عليه فرآها تبكى فقال : « ما يبكيك يا فاطمة ، فوالله لقد زوجتك أفضلهم علما وأكثرهم حلما (٢) » .

وقد وجدت فاطمة من على كل ما كانت تصبوا اليه من طيب العشرة ، وحسن المعاملة ، وكمال الرعاية والحماية . وعلى الرغم من أن المسلمين في هذا العهد قد كانوا يكثرون من الزواج ، لما فيه من تآلف البطون ، وتقارب العشائر ، وحاجة الدولة الى السواعد القوية التى تحمى حماها وتزود عن بيضتها ، فإن عليا لم يتزوج على فاطمة حتى لقيت ربها بعد ستة أشهر (٣) من وفاة أبيها صلوات الله وسلامه عليه .

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ١/٥٤

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٣٤٢ ، ٣٤٣

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣/٢٤٠

وقد كان على كرم الله وجهه للنبي عليه الصلاة والسلام بمنزلة ابنه البار الذي يحبه ويدافع عنه ويبذل روحه رخيصة في سبيله ، والذي يستعرض الغزوات التي غزاها صلوات الله وسلامه عليه يتبين له كيف أن عليا قد كان نعم العون للنبي صلوات الله عليه ، ونعم المقاتل بين يديه ، ففي بدر كان سيفه يخلع قلوب الأبطال ، وفي أحد كان الكماة يقولون (١) :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على

وفي الأحزاب قتل عمرو بن ود ، وكان يعد للأعداء بألف ، وفي خيبر وبعد أن استحر القتل واستعصت بعض الحصون على الفتح قال النبي صلوات الله وسلامه عليه : « غدا أعطى الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فما من أحد من وجوه أصحابه إلا تطلع الى هذا الشرف ، ولما أصبح الصباح استدعى عليا ودفع اليه الراية ، وكان أرمدا فمسح على عينيه ، فلم يشك منهما ولا من إحداهما حتى مات (٢) . »

والأحاديث كثيرة في فضائل على ، ومنها على سبيل المثال : « يا على أنت مولى كل مؤمن ومؤمنة » وقوله :

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٤٣/٣

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ٧٧/٢

« من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم والى من والاه
وعادى من عاداه » (١) . وقد اتفق الرواة على أن عليا
شهد المشاهد كلها مع النبي ما خلا غزوة تبوك فإنه
صلوات الله عليه قد أنابه عنه في أهله (٢) ، فلما أرجف
المنافقون وقالوا : والله ما تركه إلا تخففا منه أتاه شاكيا
فقال له : « يا على ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة
هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » (٣) . وقد كان
النبي عليه الصلاة والسلام يؤمر عليا على بعض
السرايا اطمئنانا الى كفايته ، وثقة في شجاعته وحسن
قيادته . ومن فضائله كرم الله وجهه أنه لم يؤمر عليه
أحدا من أصحابه في سرية ، وأنه قد أسند اليه الفتيا
والقضاء (٤) . ولما أمر أبا بكر على الحج ونزلت
الآيات الأولى من سورة « براءة » بعثه ليقراها على
الناس وقال في تبرير ذلك : لا يبلغ عنى إلا رجل
منى (٥) .

ولو شئنا أن نعدد مزاياه رضى الله عنه وفضائله ما

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ١٠٨/٤

(٢) ابن سعد : الطبقات ٢٣/٣

(٣) المقرئى : امتاع الأسماع ٤٥٠/١

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ١٠٠/٤

(٥) ابن كثير : السيرة النبوية ٢٩٧/٢

اتسعت لنا هذه السطور ، ويكفى أن نعرف أن النبي عليه الصلاة والسلام قد غادر هذه الدنيا وهو عنه راض وله محب .

وجاء أبو بكر فأخلص له على بعد بيعته له ولم يتردد في نصيحته اذا استشاره وطلب الرأى منه ، والدليل على ما كان بين الرجلين من المودة والمحبة والثقة المتبادلة أن أبا بكر جعله على أحد أنقاب المدينة عندما جاءت الأخبار أن المرتدين (١) عازمون على مهاجمتها وأن عليا خشى عليه القتل وهو متوجه الى ذى القصة ، وردد عليه ما كان يقوله النبي له : « متعنا بنفسك يا أبا بكر » .

ولما فكر الصديق فى العهد الى عمر استشار عليا فأيده فى رأيه ووافقه على رغبته . وجاء عمر فأدنى عليا وبالغ فى إكرامه وكان يستشيريه وينزل عند مشورته فإذا غاب عنه وعرضت له قضية قال : قضية ولا أبا حسن لها (٢) . وكان اذا ناداه قال : يا مولاي . فاذا عجب على من هذا التقدير والتوقير قال له عمر : أليس قد قال فىك النبى صلوات الله عليه : يا على أنت

(١) ابن الأثير : الكامل ٢/٢٣٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/١٠٠

مولى كل مؤمن ومؤمنة . ولما شكل مجلس الشورى جعل علياً أحد أعضائه (١) وقال : لو ولوها الأجلح كان أحرى أن يحملهم على الطريق . ولم يكن عمر يجلب أبا الحسن وحده وإنما كان يجلب كذلك أبناءه وبناته ويرفع رواتبهم في العطاء ، وكان على ييادله حباً بحب ووداً بود ، والدليل على هذا أنه سمي أحد أبنائه أبا بكر وسمى الآخر عمر ، وزوج ابنته أم كلثوم من الفاروق على الرغم مما كان بينهما من فارق السن (٢) ،

ولما فاضت روح عمر جزع عليه وقال فيه ما هو له أهل . ونسج على مع عثمان على نفس المنوال الذى نسج عليه مع صاحبيه أبى بكر وعمر ، فكان يؤيده إذا أصاب ويعارضه إذا أخطأ ، وكان يشير عليه إذا طلب منه الرأى ، وينصحه إذا أحس أنه فى حاجة الى النصح .

ولما عزل عثمان عمال عمر وأسند حكم الأقاليم الى أقاربه وذوى عشيرته أماط على النقاب له عن ما فى هذه السياسة من الأخطار (٣) وما سيترتب على التزامها

(١) تاريخ اليعقوبى ١٦٠/٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ٢٦٥/٣

(٣) تاريخ اليعقوبى ١٧٤/٢

من العواقب والنتائج . وكان عثمان يصغى الى على من غير ضيق ، ويسمع منه من غير حرج ، لأنه كان يعرف مدى إخلاصه له ، ومنزلته في قلبه ، وحرصه الذى لا حد له على تضامن الأمة وتماسكها ، وإقصاء الشرور والفتن عن ساحتها . ولما أطلق أعداء الاسلام الشائعات حوله ، وأكثروا من قالة السوء في سياسته وسياسة عماله كان على يدافع عنه ، ويقول كلمة العدل والإنصاف فيه ، ويذكر لشانئيه مآثره ، وفضائله ، وحسن صحبته للنبي عليه الصلاة والسلام ، والدليل على هذا : أنه لما ارتحلت اليه الثوار من مصر والبصرة والكوفة لائمين لمنهجه في الحكم ، وطرائقه في السياسة استقبلهم على ، وحاورهم ، حتى أسقط حجتهم ، وأبطل دعوتهم ، ولم يزل يقرب بينهم وبين الخليفة حتى أذهب غيظ قلوبهم ، ومحا وساوس الشيطان من نفوسهم وخطبهم عثمان خطبة هزت منهم الأفئدة ، وأبكت الأعين ، وجعلتهم يولون وجوههم شطر بلادهم (١) .

ولولا تدخل بنى أمية وكتاب مروان الذى أرسله مع غلام عثمان الى عامله على مصر يأمره فيه بحبس بعض الثائرين ، وقتل البعض الآخر لما عاد الثائرون

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ١٧٠ ، ١٧١

أدراجهم الى المدينة ، ولما تكهرب الجو بينهم وبين الخليفة فيها حتى حاصروه وقتلوه (١) . ومع هذا كله فإن عليا وقف الى جانب عثمان فناقش الثوار في أمر الكتاب ، وما زال بهم حتى أوقعهم في الحرج ووسمهم بالكيد والتآمر (٢) . ولما اشتد حصر الثوار للخليفة ومنعوا دخول الراوية الى داره غضب على ولم يهدأ حتى أدخل اليه الماء ، والأمر كذلك بالنسبة لإحاطة القوم بدار عثمان ، فإن عليا قد أرسل ولديه الحسن والحسين وأمرهما أن يقفا ببابه وألا يمكنا أحداً من الاقتحام عليه وفيهما عين تطرف أو قلب ينبض (٣) . ولما بلغته الأخبار أن عثمان قد قتل وكز الحسن ولطم الحسين ، وأعلن أن قاتليه رضى الله عنه ملعونون على لسان داود وعيسى بن مريم وأنهم سوف يسقون بقتله دماً الى يوم القيامة (٤) .

وسقط في أيدي الثوار ، وخافوا أن تتحلب عليهم الجيوش من الأمصار ، فأتوا كبار الصحابة الذين لا يزالون على قيد الحياة من أعضاء مجلس الشورى

(١) ابن سعد : الطبقات ٦٥/٣
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧١/٧
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٧٦/٧
(٤) ابن سعد : الطبقات ٦٩/٣

وعرضوا عليهم الخلافة فأبوها وأشفقوا منها ، فألحوا على على في قبولها ، فقال : دعونى وولوها غيرى (١) ، فلئن أكون وزيراً أحب الى من أن أكون أميراً ، فشددوا وطأتهم على أهل المدينة ، وأجلوهم ثلاثة أيام وهددوهم إن هم لم يختاروا منهم خليفة ، فإنهم سيقتلون علياً وسعداً ، وطلحة ، والزبير ، وناشد الأنصار والمهاجرون علياً حتى قبلها ، وتمت البيعة له صباح الجمعة الثالث والعشرين من ذى الحجة (٢) ، وخطب على خطبة هى الى الدين أقرب منها الى السياسة ، وعزل ولاية عثمان ، فأدعنوا جميعاً ما خلا معاوية .

وقد أجمع المؤرخون على أن علياً رضى الله عنه قد كان فصيح اللسان ، قوى الجنان ، شديد الخشية لله ، والخوف منه ، والحب لرسوله ، وبذل الدم والنفس فى سبيله ، وأنه كان من قراء القرآن المجيدين ، وحفاظه المبرزين ، والقائمين على تفسيره وتأويله ، ومعرفة

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/٤٠٧ .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٤/١١٣ .

أحكامه وحلاله وحرامه ، وقد بلغ من كثرة العلم بهذا الكتاب الخالد أنه كان يعرف متى نزلت كل آية منه ، وأين نزلت ، وفي أية مناسبة هبط الوحي بها على فؤاد النبي صلوات الله وسلامه عليه (١) . وقد تضافرت الروايات على أنه كتب القرآن كله حسب نزوله (٢) ، وأن من الأسباب التي شغلته عن بيعة أبي بكر رضى الله عنه هو انصرافه الى ترتيب القرآن في مصحفه على أساس هبوط الوحي به . وقد روى عنه كرم الله وجهه أنه قال لأصحابه : سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ، وسلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم في سهل أم في جبل (٣) .

وهذا الكلام غير مستغرب من على ، فقد تربى في بيت محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وأخذ عنه أكثر علومه ومعارفه ، ولم يفارقه بعد أن بلغ أشده ، وأصبح قادراً على الكسب والسعى في طلب الرزق ، لم يتركه ولا تخلى عنه ، وإنما كان يسايره في شعاب مكة وجبالها يستمع منه ويتلقى عنه ، ولما هاجر الى المدينة زوجه

(١) ابن سعد : الطبقات ٢/٣٣٨

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٣٥١

(٣) ابن سعد : الطبقات ٢/٣٣٨

النبي عليه الصلاة والسلام من ابنته (١) وخط بيته الى جانب بيته ، ولم يكن ينقطع عن زيارته والتردد عليه ، وهذا كله يجعله على علم واسع بالقرآن ، وفهم عميق لمعانيه وألفاظه .

أضف الى هذا كله ما قاله فيه صلوات الله وسلامه عليه : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » (٢) . وأنه مسح على صدره بعد أن أسند اليه القضاء ، فلم يكن يخطيء في قضية ترفع اليه . وقد كان عمر يرى أنه من أقدر أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام على تجلية ما غمض وحل ما أشكل ، وكان اذا عرضت له قضية وسأل عنه فلم يجده قال كلمته المشهورة : قضية ولا أبا حسن لها (٣) . ولم يكن على من قراء القرآن وحفاظه في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وحسب وإنما كان كذلك أحد الذين حملوا مشعل التفسير (٤) ، وكان من تلاميذه

(١) المقرئى : امتاع الاسماع ٥٤/١

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ١٠٠/٤

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣٣٩/٢

(٤) بدر الدين الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ٨/١٠ دار

المعرفة - بيروت سنة ١٩٧٢ م تحقيق : محمد أبو الفضل .

حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس ، فرحم
الله عليا ، وأطرى جهاده في سبيل الله • وتحت لواء
رسوله ، وأثابه على خدمته للقرآن جزاء الحافظين له
والمطبقين لمبادئه وتعاليمه ، والمالئين الليل والنهار
بتلاوته وترتيله •



The first thing I noticed when I stepped
 out of the car was the smell of the
 sea. It was a fresh, salty breeze that
 washed over me, clearing my mind of
 all the worries and stresses of the
 city. I had never felt so at peace
 before. The sun was shining brightly,
 and the water was a beautiful blue.
 I took a deep breath and smiled.
 This was exactly what I needed.

6. 2. 20

ابن مسعود وإفشاء القرآن :

وكان عبد الله بن مسعود غافل بن حبيب الهزلى (١) من الذين حفظوا القرآن في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وجودوه ، وتفقهوا فيه ، وبرزوا في فهم أحكامه ، ومعرفة حلاله وحرامه . ويقول الرواة : إن عبد الله هذا لم يكن من صميم قريش ، وإنما كان من حلفاء بنى زهرة (٢) ، وهم بطن من بطونها العشرة ، فقد حالف أبوه مسعود عبد الحارث بن زهرة في الجاهلية ، وتزوج من أم عبد بنت عبدود بن سواء (٣) ، وأنجب منها غلاما نحيفا قصيرا شديد الأدمة ، أحمش الساقين (٤) ، وسماه عبد الله . ولا يدري التاريخ على سبيل التحديد متى ولد هذا الغلام ، ويبدو لى أن ولادته قد كانت في مكة وقبل أعوام قليلة من البعثة ،

(١) ابن حجر : الإصابة ٣٦٨/٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ١٥٠/٣

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٨٤/٣

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٨٨/٣

والدليل على هذا أن النبي عليه الصلاة والسلام وأبا بكر مرّاً به وهو يرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط ، فسأله النبي عليه الصلاة والسلام شربة من لبن فقال له : إني مؤتمن ، قال : فهل عندك شاة لم يطرقتها الفحل . فقال : نعم قال : فهاتها ، فقدمها اليه فمسح على ضرعها فجادت ، فشرب النبي حتى شبع وشرب أبو بكر حتى شبع كذلك ، وأمر رسول الله ابن مسعود فشرب هو الآخر ، وكان يومئذ غلاماً لم يبلغ مبلغ الرجال بعد (١) .

ومضى محمد وصاحبه وقد استولت الدهشة على ابن مسعود وأذهله ما رأى ، ومضى حتى أتى محمداً عليه الصلاة والسلام في داره وأجابه الى ما يدعو اليه ، فكان سادس رجل دخل في الاسلام (٢) ، وأحب ابن مسعود القرآن منذ الوهلة التي سمعته فيها أذناه ، فكان يحرص على أن يأتي النبي عليه الصلاة والسلام ويتلقى عنه ما ينزل فور سمعه عليه الصلاة والسلام من الروح الأمين ، حتى لقد أخذ من فمه صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة ، ولم يتح ذلك لأحد من الصحابة (٣) .

(١) ابن سعد : الطبقات ٣/ ١٥٠ ، ١٥١

(٢) ابن حجر : الإصابة ٢/ ٣٦٩

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/ ٣٨٥

ولم يكن ابن مسعود يحرص على تلقي القرآن وحفظه وحسب وإنما كان يحرص كذلك على إفشائه (١) ونشره وأذاعته بين من يؤمن به ومن لا يؤمن . قال لجلسائه يوماً وقد اجتمعت قريش في نواديها : أيكم يسمع هؤلاء شيئاً من القرآن . فسكتوا ، فقال : أنا والله أسمعهم إياه ، فراح يقرأ ويعلى صوته ، فصمت القوم كأن على رؤوسهم الطير ، فلما أذهلتهم المفاجأة أقبلوا إليه وصبوا جام غضبهم عليه (٢) ، ومع ضعف ابن مسعود ونحافة جسمه فإنه أراد أن يعيد هذه المحاولة لكن رفاقه نهوه ولم يسمحوا له . واشتد إيذاء الكفار له فهاجر إلى الحبشة في المرة الأولى عند فريق من المؤرخين ، وهاجر إليها فيها وفي الثانية عند فريق آخر . ولما أذن الله لنبيه في الهجرة إلى المدينة هاجر إليها ابن مسعود ، ونزل على سعد بن خيشمة (٣) ولما آخى النبي بين المهاجرين آخى بينه وبين الزبير بن العوام ، ولما آخى بينهم وبين الأنصار آخى بين ابن مسعود ومعاذ بن جبل (٤) ولما خط النبي عليه الصلاة والسلام مساكن

(١) ابن سعد : الطبقات ١٥١/٣

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٨٦/٣

(٣) ابن هشام السيرة النبوية ٨٩/٢

(٤) ابن حجر : الإصابة ٣٦٩/٢

أصحابه الذين هاجروا معه خط لابن مسعود مع خلفائه من بنى زهرة ، على الرغم من اعتراض بعضهم على ذلك ، وقال : إن الله لا يقدر قوما لا يعطى الضعيف منهم حقه (١) . وما أجمع الرواة على شيء إجماعهم على أن ابن مسعود قد شهد بدرأً وضرب فيها عنق أبي جهل (٢) ، وشهد المشاهد الأخرى ، فلم يغيب عن مشهد ، ولا تخلف عن غزوة ، وأنه كان رفيق النبي عليه الصلاة والسلام في سفره وحضره ، ففي السفر كان صاحب سره ووساده وسواكه ونعليه وطهوره ، وفي الحضر كان يلبسه نعليه ، ويمشى بالعصا بين يديه ، فإذا بلغ مجلسه خلع عنه نعليه ووضعها في كفه ، فإذا انتهى ألبسه إياهما ومشى بين يديه بالعصا حتى يدخل الحجرة قبله ، ويتابع سواده حتى ينهيه (٣) .

ولكثرة ترده عليه وتردد أمه كان أبو موسى الأشعري رضى الله عنه يقول : أتيت من اليمن وما أرى إلا أن ابن مسعود من أهله . وما أشك في أن هذه الصحبة الطويلة وهذا القرب الذي لا حد له من النبي صلوات الله وسلامه عليه قد كان لهما أثرهما في ما أوتى من

(١) ابن سعد : الطبقات ٣/١٥٢

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ١/٣٤٣

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٨٦

العلم ، وما رزق من المعرفة ، حتى ان عمر وعليما
وغيرهما كانوا يعرفون له قدره ، ويظرون مقامه
وشأنه . رآه عمر مقبلا من بعيد فقال : هذا كنيف ملئ
علما ، وأرسله الى حمص والكوفة معلما لمن فيهما (١) .
وكتب اليهما يقول : لقد آثرتكم على نفسى فاستمعوا
له وخذوا عنه .

ولما دخل على الكوفة أتاه نفر من أصحاب ابن مسعود
فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم ، قال : وأنا أقول
فيه مثل الذى قالوا أو أفضل . قرأ القرآن فأحل حلاله ،
وحرم حرامه ، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة (٢) .

وقد كان الناس اذا رأوا ضالة جسمه ، وشدة أدمته ،
وضمور ساقيه ، ضحكوا منه ، فكان النبى عليه الصلاة
والسلام يزرهم ويقول : لرجل ابن أم عبد أثقل يوم
القيامة فى الميزان من جبل أحد (٣) ، وكان ابن مسعود
يكرس وقته وجهده للقرآن ، حتى بلغ فيه الغاية التى
لا تدرك ، والأوج الذى لا ينال ، فقد أثنى صلوات الله
وسلامه عليه على تلاوته ، وأمر الناس أن ينسجوا على

(١) ابن حجر : الاصابة ٢/٣٦٩

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣/١٥٦

(٣) ابن الأثير : اسد الغاية ٣/٣٨٨

منواله فيها ، وقال : من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد (١) . وكان يحب صلى الله عليه وسلم أن يسمع القرآن منه ، رآه يوما فقال له : اقرأ علىَّ يا ابن أم عبد ، قال : كيف أقرأه وعليك نزل . قال : إني أحب أن أسمع من غيري ، فراح يتلو من أول سورة النساء ، والرسول يسمع حتى اذا بلغ قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا . يومئذ يود الذين كفروا وِعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثا (٢) فأشار إليه أن يصمت ، فرفع وجهه فاذا عينا رسول الله تزر فان (٣) ، واذا هو يردد هذه الآية ، وقد بلغ منه التأثير كل مبلغ .

وقد استبعد بعض الباحثين أن يكون ابن مسعود قد حفظ القرآن كله في حياة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، معتمدين على أنه قال : لقد تلقيت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة (٤) . وهو استنتاج لا عمق

(١) ابن حجر : الاصابة ٢/٣٦٩

(٢) سورة النساء : ٤١ ، ٤٢

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٨٧

(٤) ابن حجر : الاصابة ٢/٣٦٩

فيه ، لأن تلقيه هذا القدر من القرآن عن النبي عليه الصلاة والسلام لا يستلزم عدم تلقيه باقيه من فم غيره ، أو من الصحف التي كان الكتاب وغيرهم ينسخونها للقراءة والتعليم . والذي انتهى اليه حفاظ السنة وشراحها أن ابن مسعود كان أحد السبعة الذين حفظوا القرآن في حياة النبي عليه الصلاة والسلام من أهل مكة . ومن الأدلة على أن الرجل كان قد انقطع للقرآن ، أنه كان له درس يؤديه في مسجد الكوفة كل خميس ، وكان يمضى العام لا يسمع منه الناس : قال رسول الله ، وقد قالها يوما فارتعد قلبه ، وارتعشت يداه ، وأخذ يدير وجهه يمنا ويسرة وهو يقول : أو نحو ذا أو شبه ذا . . . إلى آخره .

روى عمرو بن ميمون قال : اختلفت الى ابن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ﷺ ، ولا يقول فيها : قال رسول الله ﷺ . إلا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ﷺ . فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال : إن شاء الله إما فوق ذلك ، وإما قريب من ذلك ، وإما دون ذلك (١) .

وقد تسأل : واذا كان لابن مسعود هذه المنزلة في تلاوة القرآن وحفظه ، وفي الانقطاع له والمعرفة لحلاله وجرامه ، فلماذا لم يشركه أبو بكر في الجمع الأول للقرآن ، وألقى هذه المهمة على كاهل زيد بن ثابت ؟ وفي الجمع الثاني ، وهو الذى كان في خلافة أمير المؤمنين عثمان فإنه هو الآخر قد تركه وأثر عليه غيره ؟ والجواب : أن زيد بن ثابت قد كان علاوة على كتابته للوحي شابا ممتلئا حماساً وقوة ، وكان لا يعرف اللغة العربية وجدها وإنما كان يعرف العبرية والسريانية أيضاً (١) . وهذه المهمة أعنى جمع القرآن تتطلب العزم الشديد ، والثقافة الواسعة ، وقد كان ذلك في زيد أوضح منه في ابن مسعود . يبقى جمع عثمان ، ويظهر أنه رضى الله عنه قد وازن بين الرجلين وأثر زيداً للعلة التي ذكرناها وعلة ثانية وهى : أن ابن مسعود لم يكن مستريحاً الى جمع المسلمين على مصحف واحد وإحراق ما عداه (٢) ، فكيف يكل اليه ذو النورين مهمة لا يرضى عنها ، فضلاً عن الحماس لها والتصميم على إنجازها . وقد أعلن ابن مسعود استيائه لتقديم ابن ثابت عليه ،

(١) على بن برهان الدين الطبرى : انسان العيون ٤٢٣/٣ دار المعرفة - بيروت .

(٢) تفسير ابن كثير ١١/٤

وذكر أنه كان يحفظ القرآن وزيد طفل يلهو في المدينة
مع لداته وأترابه ، ومهما يكن من شيء فان ابن مسعود
قد كان في عصره أحد القراء المجيدين ، وأحد الحفاظ
المبرزين ، تمشى اليه الركبان ، ويشار اليه بالبنان ،
ويروى فقهه وعلمه الزمان للزمان .



1. The first part of the document is a letter from the author to the editor, dated 10/10/1964. The letter discusses the author's interest in the subject of the journal and the possibility of publishing a paper on the topic. The author mentions that he has been working on the subject for some time and has some preliminary results. He asks the editor if the journal would be interested in publishing his paper and if so, what the requirements would be. The letter is signed by the author and dated.

2. The second part of the document is a letter from the editor to the author, dated 10/15/1964. The editor responds to the author's letter and expresses interest in the subject. He asks the author to submit a full paper on the subject, including a literature review and a list of references. The editor also asks the author to provide a short summary of the paper and to indicate the key findings. The letter is signed by the editor and dated.

عبد الله بن عمرو وختم القرآن :

وكان عبد الله بن عمرو علما من أعلام القرآن وقطبا من أقطابه (١) ، كرس جهوده لوعيه وحفظه ، ووهب حياته لترتيبه وتجويده ، وقصر أيامه ولياليه على تأمل مبانيه وتدبر معانيه حتى فشا ذكره ، وعلا قدره ، وارتفعت مكانته ومنزلته . ويقول الرواة : إنه وأباه عمرو قد كانا متقاربين في السن ، ولم يكن يفصل بينهما سوى اثنتي عشرة سنة ، وانه رضى الله عنه قد دخل الاسلام قبل أن يدخل فيه أبوه (٢) . ومنذ الوهلة التي هداه فيها مولاه الى الدين الحق وهو في جهاد مادي ونفسى إلى أن غادر هذه الدنيا ، وولى وجهه نحو الرفيق الأعلى . روى الثقة : أنه عزم على أن يصوم النهار ويقوم الليل ، فبلغ النبي صلوات الله وسلامه عليه ذلك فقال له : أنت الذي عزمتم على أن تصوم

(١) ابن الاثير : اسد الغابة ٣/٣٤٩

(٢) ابن حجر : الاصابة ٢/٣٥٢

الدهر ، وتقوم الليل ؟ قال : نعم ، قال : إن ذلك يشق عليك فصم وافطر وقم ونم فإن لبدنك عليك حقا ولزوجك عليك حقا ولنفسك عليك حقا فاعط كل ذي حق حقه (١) . قال عبد الله : ولكنى أقوى على ما هو أكثر ، قال : فصم ثلاثة أيام من كل شهر . قال : فإنى أقوى على ما هو أكثر . قال : فصم كما كان يصوم نبي الله داود . قال : فكيف كان يصوم ؟ قال صلوات الله عليه : كان يصوم يوما ويفطر يوما . فكان عبد الله يفعل ما تم الاتفاق عليه بينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام . فلما كبرت سنه ووهن عظمه وأصبح الصوم يجهده ويتعبه قال : ليتنى أجبت رسول الله ﷺ إلى ما دعانى إليه ، ولم أشق على نفسى (٢) .

وكان ابن العاص دائم العبادة ، شديد الزهد (٣) ، لا يفكر فى متع هذه الدنيا ، ولا فيما فيها من اللذائذ والشهوات . ورجل يصوم نهاره ويقوم ليله هكذا ما الذى يبقى له من أطايب هذه الدنيا وما فيها من متاع وزخرف .

(١) ابن سعد : الطبقات ٤/٢٦٢

(٢) ابن حجر : الإصابة ٢/٣٥٢

(٣) ابن حجر : الإصابة ٢/٣٥٢

ولم تكن العبادة المتواصلة هي التي أعدها ابن عمرو لأخوته وحسب وإنما كانت له مفاخر أخرى لم تكن لغيره ، منها كتابة السنة بين يدي صاحبها صلوات الله وسلامه عليه ، فقد تضافرت الروايات على أن عبد الله ابن عمرو أتى رسول الله ﷺ واستأذنه في أن يكتب ما يتلقاه عنه حتى يعيه ولا يتطرق النسيان إليه فأذن له ، فقال : أكتب عنك في الرضا والغضب ؟ قال نعم . فإنى لا أقول إلا حقاً (١) . وقد كان عبد الله رضى الله عنه يسمى الصحيفة التي ضمنها ما سمعه من النبي صلوات الله وسلامه عليه الصادقة (٢) . لأنه ما من حرف فيها ولا لفظ إلا وقد تلقاه شفاهاً ومن غير واسطة من النبي صلوات الله وسلامه عليه . وقد أكثر ابن عمرو من الرواية عن الرسول حتى فاق أبا هريرة وهو فارسها الذي لا يبارى وكميها الذي لا ينازل ، وقد أعلن هو ذلك على ملاء من الناس ، وذكر العلة التي من أجلها كان هو الأكثر حديثاً، وهى أنه كان يكتب (٣) ، أما هو أعنى أبا هريرة فإنه لم يكن كذلك .

وفي ميدان القرآن فإن الرواة قد اتفقوا على أن

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٤٩٦

(٢) ابن سعد : الطبقات ٤/٢٦٢

(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٤٩٦

عبد الله بن عمر بن العاص كان يقرأ القرآن مرة في كل ليلة ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد نهاه عن ذلك ، وراح ينهاه والرجل يأبى إلا أن يسمح له بختم القرآن في أقصر وقت يستطيعه ، حتى تم الاتفاق على أن يختم ابن العاص الذكر الحكيم مرة في كل سبعة أيام أو خمسة (١) .

ورجل هذا نشاطه في التلاوة ، وهذا دوامه عليها لا بد وأن يكون من الذين يحفظون القرآن حرفا حرفا وكلمة كلمة . ونحن نعلم أن للقرآن بركة تعالى صاحبها في الدنيا حتى تجلسه على أريكة الخلافة ، كما هو الحال بالنسبة لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وترفعه في الحياة الآخرة حتى يوضع تاج الكرامة على رأسه ، وحتى تناديه الملائكة ، أو يناديه الرب جل وعز : اقرأ واصعد فإن مكانك في الجنة عند آخر آية انتهيت إليها في الدنيا (٢) .

وكان تاريخ ابن عمرو زاخرا بالأحداث فقد شهد مع أبيه معركة صفين (٣) التي كانت بين على ومعاوية رضى

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٢/٢٤٨

(٢) تفسير القرطبي : ٧/١

(٣) ابن سعد : الطبقات ٤/٢٦٦

الله عنهما . ويقول الرواة : إن ابن العاص قد كان يتردد في شهود هذه المعركة ، ولولا أن أباه قد ألح عليه في مصاحبته اليها ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال له يوماً في شيء كان بينه وبين عمرو : أطع أباك . لولا هذا ما شهد صفين ، ومع شهوده للمعركة وحمله اللواء فإنه لم يرم فيها بسهم ولم يطعن برمح ولم يضرب بسيف (١) .

ويقول الرواة : إن عبد الله بن عمرو هو الذي تسبب في إضعاف جيش معاوية بعد ما كان قد أوشك أن ينتصر على جيش علي ، فإنه لما علم أن أهل الشام قتلوا عمار ابن ياسر ، راح يشرح قيمة هذا الرجل ، ومنزلته ، ويؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام قال في شأنه (٢) : «يا عمار تقتلك الفئة الباغية» وما إن جرى على شفتي ابن العاص هذا الحديث حتى تخاذل أهل الشام وضعفوا وراح بعضهم يقول لبعض : نحن والله قتلنا عمار ابن ياسر ، فنحن إذن الفئة الباغية . ورأى معاوية ما أصاب جنده فاستدعى عمرو بن العاص وقال له :

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣/٣٥٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٢٦٨

ألاّ تنهى مجنونك هذا عما يقول ، نحن الذين قتلناه ،
والله ما قتله إلا من جاعوا به (١) . ومهما يكن من شيء
فإن الرواة قد اختلفوا أشد الاختلاف في العام الذي مات
فيه عبد الله بن عمرو . وأرجح الأقوال عندي هو أن
موته قد كان في وقعة الحرة (٢) ، فرحم الله ابن عمرو ،
وأجزل له المثوبة في الحياة الآخرة ، وجعل القرآن
شفيعه . «يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن
ورضى له قولاً» (٣) .

سالم وقراءة القرآن :

وكان سالم مولى أبى حذيفة ممن وهبوا أنفسهم
للقرآن ، وكرسوا حياتهم لتلاوته وحفظه (٤) حتى بذوا
الأقران ، وتقدموا على الأتراب والأصحاب . وقد اتفق
الرواة على أن سالما هذا لم يكن عربيا ، وإنما كان
أعجميا من إصطخر (٥) أو من كرمد . والتاريخ لا
يعرف على سبيل التحديد كيف وصل سالم الى بلاد

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٦٩/٧

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٤٩/٢

(٣) سورة طه : ١٠٩

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٠٧/٢

(٥) ابن سعد : الطبقات ٨٥/٣

العرب ، ولا كم كانت سنه عند وصوله إليها ، وكل ما وعته ذاكرته هو أنه كان مولى لامرأة من الأنصار اسمها (١) فاطمة أو ثبيته ، أو عمرة ، أو ليلى ، أو بثينة ، أو سلمة . وأن هذه المرأة قد كانت زوجا لأبى حذيفة « هشيم بن عتبة » ، فأعتقته سائبة لله تعالى (٢) وقالت له : اجعل ولاءك لمن تشاء ، فجعل ولاءه لزوج مولاته (٣) .

ويظهر أن سالما كان حسن العشرة ، دمث الخلق مخلصا أشد الإخلاص لمن أعطاه ولاءه ، ولهذا فإنه تبناه كما تبني محمد عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثة ، فلما حرم التبني وأمر المسلمون أن ينسبوا من تبنوههم الى آبائهم نسب زيد الى أبيه حارثة ، ولأن سالما لم يكن له أب معروف فإنهم كانوا يقولون فيه سالم من الصالحين ثم غلب عليه قولهم : سالم مولى أبى حذيفة (٤) . وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يعدون سالما من المهاجرين لقربه من أبى حذيفة ، ويعدونه من الأنصار لقربه من ثبيته بنت يعار

(١) ابن حجر : الإصابة ٦/٢

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٧٠/٢

(٣) ابن سعد : الطبقات ٨٦/٣

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٠٨/٢

الأنصارية (١) . ولما نما سالم وبلغ مبلغ الرجال وكان يدخل على سهلة بنت سهل بن عمرو زوج أبى حذيفة وهى فضل ، فترى التغير فى وجهه ، أتت النبى صلوات الله عليه وقصت عليه ذلك فقال لها : « أرضعيه تحرمى عليه (٢) ، فقالت : يا رسول الله إنه ذو لحية ، قال : « أعرف ، وأعاد عليها ما أمرها به » .

وقد دخل سالم فى الإسلام قديما فكان من السابقين الأولين ، ولما هاجر الى المدينة آخى النبى عليه الصلاة والسلام بينه وبين معاذ بن معاض (٣) .

ولم يكن سالم ممن يهون الحياة الدنيا وزينتها ، وإنما كان زاهدا ناسكا ، يؤثر الفقر على الغنى ، ويفضل العسر على اليسر ، طلبا لما عند الله ورغبة فى أجره وثوابه . ولم يطل عمر سالم فى هذه الحياة ، ولا عاش حتى وهن عظمه وشاب فؤاده ، وإنما غادر هذه الدنيا وهو فى ربيع الصبا ، وشرح الشباب ، شارك فى وقعة اليمامة ، فلما اشتد الهول واستحر القتل ورأى بعض أصحابه يتقهقرون قال : ما هكذا يفعل أهل

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٧٠/٢

(٢) ابن حجر : الإصابة ٧/٢

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ٧٠/٢

القرآن ، وحفر لنفسه حفرة ، ونزل فيها وهو يحمل
الراية (١) فقطعت يمينه فأخذها بشماله ، فقطعت
شماله فاحتضنها بين عضديه حتى فاضت روحه ، وقبل
أن يموت سأل عن مولاه أبى حذيفة فقالوا : إنه قتل ،
فقال : فإن أنا مت فأضجعونى الى جانبه (٢) . فلما
انتهت المعركة رأى الناس رأسه بين رجلي مولاه ، أو
رأس مولاه بين رجليه (٣) . وكان كل ما يملكه من
الدنيا مائتى درهم ، فدفعها عمر رضى الله عنه الى
مولاته فأبت وقالت : لقد أعتقته سائبة لله تعالى ،
فدفعها الى أمته وقال : كليها (٤) . وقد بلغ من حب
الفاروق لسالم وثقته فيه واطمئنانه الى كفايته وكفائه
أنه لما طعن وتردد بين الشورى والاستخلاف قال : لو
كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته . وفي خبر
آخر : لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً ما جعلتها
شورى (٥) .

(١) ابن سعد : الطبقات ٨٨/٣

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٠٨/٢

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ٧٢/٢

(٤) ابن سعد : الطبقات ٨٨/٣

(٥) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٠٨/٢

وعلى الرغم من أن الرجل قد كان ذا مزايا جمّة ومجالات في العمل - من أجل الاسلام - مختلفة فإن شهرته التي طبقت الآفاق قد كانت في خدمة القرآن ، فقد حفظه سالم من ألفه إلى يائه ، أو من بدايته إلى نهايته .

وكان ذا صوت رخي طري ، يهز العواطف ، ويثير المشاعر . فكان اذا قرأ القرآن جذب القلوب اليه ، واستقطب النفوس نحوه ، وصرف الآذان الى حيث يكون . روى الثقة أن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها احتبست عن رسول الله ﷺ وطال غيابها ، فلما عادت سألتها ما الذي حبسها ، فقالت : سمعت قارئاً يقرأ في المسجد فكنت أستمع له ، فلبس النبي صلوات الله عليه ثوبه وخرج حتى أتاه فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة ، فربت على كتفيه وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك (١) .

ولحسن تلاوة الرجل وجمال قراءته فإن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قد كانوا يأتون به في السفر ، ويأتون به في الحضر . ولما أذن الله للمسلمين

(١) ابن حجر : الاصابة ٧/٢

في الهجرة كان سالم يؤم المهاجرين في قباء ، وفيهم أبو بكر وعمر حتى هاجر إليها النبي صلوات الله وسلامه عليه (١) . وقد أسلفنا أن سالماً لما أنس من بعض إخوانه ضعفاً في القتال يوم اليمامة قال : ما هكذا يفعل أهل القرآن ، وحفر لنفسه حفرة ونزل فيها وراح يقاتل حتى قتل . فرحم الله سالماً ، وأكرم نزله ، وأورثه الفردوس الأعلى ، لخدمته للقرآن ، وتكريسه ليله ونهاره لقراءته وحفظه ، حتى بلغ في مجتمعه منزلة جعلت الفاروق يعلن أنه لو كان حياً لكان أهلاً لقيادة دولة الاسلام ، وتصريف شئون المسلمين .

وبعد فهؤلاء هم الرجال السبعة الذين حفظوا القرآن كله في حياة النبي عليه الصلاة والسلام من أهل مكة ، ومن قراءتك لسيرهم العطرة ، وحياتهم النضرة ، يتبين لك انه ما من واحد منهم إلا وقد نالته بركة القرآن فعلا قدره ، وانتشر ذكره ، وتبوأ في مجتمعه الأوج الذي لا يدرك ، وبلغ المكان الذي لا ينال . فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، كل واحد منهم قد تولى منصب الخلافة ووضعت بين يديه مقاليد الأمة ، ومات النبي عليه

(١) ابن سعد : الطبقات ٨٧/٣

الصلاة والسلام وهو عنه راض ، وله محب • وعبد الله
ابن مسعود ، وعبد الله بن عمرو ، وسالم بن معقل
مولى هشيم بن عتبة ، هؤلاء الثلاثة كانوا بحوراً
زاخرة في العلم ، وكانوا بدوراً باهرة في التقوى
والزهد • كانت تشد إليهم الركاب من كل مكان ،
وكانت تتوافد عليهم الطلاب من كل بلد ، وكان هؤلاء
وأولئك يستمعون لهم ، ويتلقون عنهم ، وينهلون من
صافي علومهم ومعارفهم ، ذلك شأنهم في الدنيا ، وما
عند الله خير وأبقى •



الفصل الثالث



القرآن وحفاظه
في المدينة المنورة

1890

1890

1890

1890

الفصل الثالث

« القرآن وحفاظه في المدينة المنورة »

خصائص القرآن المدني :

وننتقل إلى القرآن في المدينة ، ونذكر أن أول من أفشاه فيها ، هو مصعب بن عمير ، وعبد الله بن أم مكتوم . فقد بعثهما النبي عليه الصلاة والسلام إليها فور بيعة العقبة الثانية (١) ، فراحا يتلوانه على أهلها حياً إثر حى ، وعشيرة بعد عشيرة ، حتى ملأت أضواءه الأنفس ، وغمرت أقباسه الأفئدة ، ولم يبق في المدينة شاب ولا شابة ، ولا شيخ ولا شيخة إلا وقد سمع من كتاب الله ما هز مشاعره ، وحرك خواطره ، وجعله يفكر في محمد وما يدعو إليه من توحيد الله تعالى ، والانقياد له ، والإيمان به ، وبملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر (٢) .

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ١/٣٤

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣/١٥٣

وقد أنشأ ابن عمير وابن أم مكتوم كلاهما داراً للقرآن وسمياها « دار القرآن » ويخيل إلى أن الرجلين كليهما قد كانا يجلسان فيها سحابة النهار وزلفاً من الليل يقرءان القرآن ، من شاء من أبناء الأوس والخزرج . وهاجر النبي صلوات الله وسلامه عليه الى المدينة ، وبنى فيها مسجده (١) وحجرات أزواجه ، وراح جبريل ينزل عليه فيها بعد أن كان ينزل عليه في مكة . غير أن المنهج فيهما لم يكن واحداً ، ففي مكة كان القرآن ينزل كما عرفت ، في الدعوة الى وحدانية الله ، وإقامة الأدلة على وجود ذاته ، وصفاته ، ونقد ما كان عليه المشركون ، من العادات والتقاليد في عبادتهم ومعاملتهم وأخلاقهم ، وشتى جوانب حياتهم ، في سفرهم وحضرهم ومكرهم ومنشطهم ، وسلمهم وحربهم ، وبيان أخبار الماضين ، وأنباء الغابرين (٢) ، وقصص الأنبياء والمرسلين ، مع التركيز على مناقشة ما كانوا يرونه من عبادة الأصنام ، وما كانوا ينكرونه من البعث والحساب والصراف والميزان ، والجنة والنار ، . . . إلى آخره ، مما هو مبسوط في مظانه .

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١٠٢/٢

(٢) الزركشي : البرهان ١٨٨/١ ، ١٨٩

وفي المدينة سلك القرآن طريقة أخرى ، ونهج منهاجا مختلفا ، ومغايراً ، ففصل ما كان قد أجمل من العبادات ووضح ما كان قد أبهم من المعاملات ، وشرع الحدود والقصاص (١) ، وبين أحكام القتل والميراث ، وحدد الأسس التي تقوم عليها الأحوال الشخصية والأسرية ، من الزواج والطلاق ، والنفقة والرضاع ، وغيرها مما لا بد منه ، لتماسك المجتمع وترابط أفراده وطوائفه . وحرّم أشياء كانت حلالا في الجاهلية ، وأحل أشياء كانت حراماً فيها (٢) ، فمن الأول : تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . ومن الثاني : توريث المرأة ، وقد كان لا يرث إلا من حمى البيضة ومنع الحقيقة ودافع عن العرض والشرف ، وحرّم التبني وكان من حق الرجل في الجاهلية أن يتبنى من شاء وينسب اليه من أحب . وقصر الزواج على أربع ، وقد كان في الجاهلية بلا حدود ولا قيود ، وسجل الأحداث التي كانت تقع في السرايا والغزوات (٣) ، وعلق عليها لتكون دروسا تنفع الناس ، وعبراً وعظات تزيل الغشاوة عن الأعين وتمح الران عن الأفئدة

(٧) الزركشى : البرهان ١/١٨٨ ، ١٨٩

(٢) تاريخ اليعقوبى ٤٣/٢

(٣) الزركشى : البرهان ١/١٩٧ ، ١٩٨

والقلوب • ولأن الصيام والزكاة كلتاهما فرضتا في المدينة ، فإن القرآن قد أكثر من ذكرهما وفصل طائفة كبيرة من أحكامهما (١) • وعلى الجملة فإن القرآن في المدينة قد تناول المجتمع المسلم من شتى جوانبه ، وفي مختلف ظروفه وأحواله ، وليس هذا وحسب ولكنه تناول العلائق بينه وبين غيره ، في الدين والدنيا ، والسلم والحرب جميعا •

ومع اختلاف منهج القرآن في مكة عنه في المدينة ، فإنه كان واحداً في الفصاحة والبلاغة ، معجزاً (٢) لفحول العرب الذين ارتفع قدرهم في هذا الميدان ، وبزواً من سواهم في البيان ، وفصاحة اللسان • وكان معجزاً كذلك للعجم فيما تضمن من علوم ، وما حوى من فنون ، وما ضمته دفتاه من وسائل لإخراج الناس من الضلال الى الهدى ، ومن الجهل الى العلم ، ومن التمايز والاستعباد الى المساواة والحرية ، اللتين أرسى دعائمهما الاسلام ، الذى لم يكن يفرق بين حر وعبد ، ولا بين أبيض وأسود ، ولا بين غنى وفقير ، فقد كانوا جميعاً أمام أحكامه سواء ، كأسنان المشط ، وربما سبق

(١) الزركشى البرهان ١/١٨٨

(٢) تفسير الطبرى ١/١٦٥

العبد سيده ، وقدم المملوك على مالكة ، اذا كان أكثر منه صلاحا أو أتقن عملا ، أو أكثر إخلاصا لدينه وربيه .

وقد كان أهل المدينة جميعاً يتلون القرآن شأنهم في هذا شأن غيرهم من أهل مكة ، ومن سواهم ، ممن كانوا يشهدون لله تعالى بالوحدانية ، ويشهدون لمحمد صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة ، لأن القرآن كما عرفت قد كان جزءا لا بد منه في الصلوات المفروضة والمسنونة على السواء ، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام قد حثَّ على تلاوته ، وبين أن الأجر الذي يناله قارئه كثير ومضاعف ، أضف الى هذا كله أن التمايز بين الناس في هذا المجتمع قد كان قائما على القرآن ، فصاحب السورة والسورتين أفضل من صاحب الآية والآيتين ، وصاحب الطوال من السور أسود من صاحب القصار وهكذا .

وقد تضافرت الروايات على أن حفاظ القرآن من أهل المدينة قد كانوا خمسة نفر وهم (١) أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وسعيد بن عبيد ، وعويمر بن عامر ، ومعاذ بن جبل والذي يستعرض أنساب هؤلاء الرجال

(١) الزركشى : البرهان ١/٢٤١

يلاحظ أنهم جميعاً من الخزرج ، وليس من الأوس منهم أحد ، ولست أدري ما هو السر في ذلك ، ويبدو لى أنها بركة الرسول عليه الصلاة والسلام قد أدركت هذا الحي من الأنصار ، فقد ذكر الرواة أن هاشم بن عبد مناف وهو الجد الثانى للنبي عليه الصلاة والسلام (١) قد أصهر الى الخزرج هؤلاء ، وأنجب منهم ولده شيبه الذى سمي فيما بعد عبد المطلب ، وهو الجد الأول لمحمد ﷺ (٢) ، وقد عاش شيبه هذا فى المدينة حتى حملة عمه المطلب الى عش آبائه وأجداده فى مكة ، وهو غلام جفر قادر على السعى والعمل . فالخزرج إذن هم أخوال النبي (٢) ، وإليهم تنسب جدته وأم أبيه ، فلا مانع والحالة هذه أن تنالهم بركته ، وأن يكون حفاظ القرآن كله فى حياته منهم وسواء أصح هذا الاستنتاج أو لم يصح فإن هؤلاء النفر الذين حفظوا القرآن كله من الخزرج قد كانوا وجوه أهل المدينة ، وسادة الناس فيها ، ومن يرجع إليهم فى الفتوى والمشورة وطلب العلم والمعرفة .

(١) المقرئى : امتاع الأسماع ٣/١

(٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ٣٣/١

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١٥٥/١

أبي بن كعب سيد القراء :-

وهذا هو أبي كعب بن أنس بن قيس النجاري الخزرجي^(١)، حفظ القرآن كله في حياة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وكان يقرأه على مكث فتنصرف القلوب إليه وتصغى الأذان له ويحس من يسمعه كأنه يصغى إلى صوت ليس من أصوات أهل الدنيا ، وإنما هو من أصوات أهل الجنة . وقد أطراه النبي صلوات الله عليه فقال : سيد قراء أمتي أبي بن كعب^(٢) . وأثنى على علمه وفقهه فقال : « ليهنك العلم يا أبي^(٣) » . وروى أكثر من واحد أن الله تعالى أمر رسوله أن يعرض عليه القرآن . وجاء في أحاديث كثيرة : أن جبريل عليه السلام أمر محمداً ﷺ أن يقرأ القرآن على أبي فدعاه وأخبره الخبر فقال : الله سمانى لك . قال : نعم . فبكى^(٤) ، وتلا النبي صلوات الله عليه : « قل بفضل الله وبرحمته وبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون^(٥) » . وفي

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٠/٥

(٢) ابن سعد : الطبقات ٤٩٩/٣

(٣) ابن حجر : الإصابة ١٩/١

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٠/٥

(٥) سورة يونس : ٥٨

رواية أخرى أنه قرأ عليه قوله تعالى (١) : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . . . » (٢) الى آخر السورة .

ويقول المؤرخون وكتاب السير : إن أبا هذا قد كان نجاريا من قبل أبيه ، ونجاريا من قبل أمه ، وإنه كان يكتب في الجاهلية ، فلما هاجر النبي صلوات الله عليه الى المدينة كان أبى أول من كتب القرآن بين يديه (٣) ، وكان زيد بن ثابت يكتبه معه . ولم يكن الرجل يكتب الوحي للنبي عليه الصلاة والسلام وحسب وإنما كان يكتب له في حوائجه أيضا . ولملازمة أبى للنبي عليه الصلاة والسلام وشدة قربه منه فإنه حفظ الكثير من العلم ، ووعى الكثير من المعرفة حتى إن بعضهم قد عدّه من السنة الذين انتهت اليهم الفتيا في حياته صلوات الله عليه (٤) ، وحتى انه عليه الصلاة والسلام سأله يوما : أى آية في القرآن عندك أعظم . قال : آية الكرسي . فأثنى عليه ودعاه (٥) . وجاء في حديث

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٩/١

(٢) سورة البينة : ١

(٣) ابن سعد : الطبقات ٢٩٨/٣

(٤) ابن حجر : الاصابة ١٩/١

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤٨/١

رواه الثقة : أن النبي عليه الصلاة والسلام استعرض كبار أصحابه ووصف كلا بما يميزه فقال : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأقواهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقضاهم على بن أبي طالب ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وما أظلت الخضراء وما أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح (١) » .

وقد كان عمر يجل أبيعاً ، ويعرف له قدره ، ويستشيره فيما استعصى من الأمور ، وما تعقد من المسائل ، ويقول إذا رآه : « هذا سيد المسلمين » (٢) . ويقول الرواة : إن أبيعاً كان يختم القرآن كل ثمانية أيام ، وإنه كان يؤثر الفقر على الغنى ، والتقشف على المتع ، وكانت فيه غلظة وميل عن الراحة . سمع النبي عليه الصلاة والسلام يوماً يتحدث عن الثواب الذى يناله المرضى . فسأل الله تعالى أن يوعك وعكا لا يحول بينه وبين الصلاة والصيام والحج فأجابه الله الى ما سأل ، فكان

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٥٠/١

(٢) ابن الأثير : أسد الغاية ٦١/١

إذا وضع أحد يده على جسمه أحس فيه حرارة تفوق ما هو معتاد من الأجسام (١) . وقد كان يجلس للناس في المسجد الجامع في المدينة فيفيض عليهم مما أعطاه الله من العلم ، لكنه كان يكره كثرة السؤال ، وافترض ما لا يقع . إستفتاه رجل في مسألة فقال له : أوقع ما تسألني عنه ؟ قال : لا قال : فانتظر فإن وقع ما تسأل عنه اجتهدنا لك (٢) . ولتهافت الناس على علم أبي ، ورغبتهم في الاستفادة منه ، فإنهم كانوا يضربون اليه أكباد المطايا حتى ينتفعوا ببعض ما عنده . روى ابن سعد في طبقاته عن جندب بن عبد الله البجلي أنه قال : أتيت المدينة ابتغاء العلم فدخلت مسجد رسول الله ﷺ ، فإذا الناس فيه حلق يتدحدثون ، فجعلت أمضى الحلق حتى أتيت حلقة فيها رجل شاحب عليه ثوبان كأنما قدم من سفر ، قال : فسمعتة يقول : هلك أصحاب العقدة ورب الكعبة (٣) ولا آسى عليهم ، أحسبه قال مراراً ، قال : فجلست اليه فتحدث بما قضى له ثم قام ، قال : فسألت عنه بعد ما قام ، قلت : من هذا ؟ قالوا : هذا سيد المسلمين أبي بن كعب ، قال : فتبعته حتى أتى

(١) ابن حجر : الإصابة ٢٠/١

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٠٠/٣

(٣) ابن سعد : الطبقات ٥٠١/٣

منزله فإذا هو رث المنزل رث الهيئة ، فإذا رجل زاهد منقطع يشبه أمره بعضه بعضا ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ثم سألتني : ممن أنت ؟ قلت : من أهل العراق . قال : أكثر مني سؤالا ، قال : لما قال ذلك غضبت . قال : فجتوت على ركبتى ورفعت يدي ، هكذا وصف ، حيال وجهه فاستقبلت القبلة ، قال قلت : اللهم نشكوهم إليك ، إنا ننفق نفقاتنا وننصب أبداننا ونرحل مطايانا ابتغاء العلم ، فإذا لقيناهم تجهموا لنا وقالوا لنا . قال : فبكى أبى وجعل يترضانى ويقول : ويحك لم أذهب هناك ، لم أذهب هناك ، قال : ثم قال : اللهم إني أعاهدك لئن أبقيتني الى يوم الجمعة لأتكلمن بما سمعت من رسول الله ، لا أخاف فيه لومة لائم . قال : لما قال ذلك انصرفت عنه ، وجعلت أنتظر الجمعة ، فلما كان يوم الخميس خرجت لبعض حاجتى فإذا السكك غاصة من الناس ، لا أجد سكة إلا يلقانى فيها الناس ، قال : قلت ما شأن الناس ؟ قالوا : إنا نحسبك غريبا ، قال قلت : أجل . قالوا : مات سيد المسلمين أبى بن كعب (١) .

(١) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٠١، ٥٠٢.

وقد اختلف الرواة في هذا القارىء العظيم ، أمات في خلافة عمر رضى الله عنه ، أم في خلافة أمير المؤمنين عثمان . والذي عليه الأكثرون أن وفاته قد كانت في العام المكمل للثلاثين ، في أيام ذى النورين رضى الله عنه (١) ، ومن الأدلة على هذا أن عثمان قد جعله ضمن الرجال الإثنى عشر الذين ألقى على كواهلهم مهمة الجمع الثانى للقرآن (٢) ، وفيهم زيد بن ثابت رضى الله عنه . وسواء أصح هذا الرأى الثانى أم أن الرأى الأول قد كان هو الصحيح فإن أبى بن كعب قد كان نعم الزاهد الناسك ، ونعم البطل المحارب ، ونعم القارىء الحافظ الذى أفنى حياته فى خدمة القرآن وإفشائه ، وغزو الأفتدة والقلوب بأضوائه وأنواره . فرحم الله أبيعاً ، وحشره مع الذين أنعم الله عليهم من النبیین والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .



(١) ابن حجر : الاصابة ٢٠/١
(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٠٢/٣

زيد بن ثابت وجمع القرآن :-

وهذا هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان (١) ، أحد أزكياء الأنصار وفضلائهم ، وأحد علمائهم ووجهائهم . ويقول الرواة : إن زيدا هذا قد كان نجاريا من جهة أبيه ، وكان نجاريا من جهة أمه ، وإنه قد ولد في المدينة ، وكانت ولادته قبل بعث بستة أعوام (٢) . وهاجر النبي عليه الصلاة والسلام وله من العمر إحدى عشرة سنة (٣) . ويظهر أنه قد لازم مصعب بن عمير ، وعبد الله بن أم مكتوم رضی الله عنهما فور شخوصهما الى يثرب ، فقرأ عليهما وتعلم منهما ، والدليل على هذا أنه كان يحفظ عند هجرة الرسول وأصحابه بضع عشرة سورة . وهو قدر من القرآن لم يتح لغيره في مثل سنه . وما أشك في أن مخايل ذكاء زيد هذا ودلائل فطنته قد بدت مبكرة وقبل أوانها المعتاد ، ولهذا فإن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكد يستقر في المدينة حتى أحضره أقاربه اليه ، وقالوا له فرحين مستبشرين : إن هذا الغلام قد حفظ بضع عشرة

(١) ابن الاثير : أسد الغابة ٢/٢٧٨

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ١/٥٥١

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٥/٣٤٦

سورة من القرآن (١) . وقد أعجب به رسول الله ﷺ بعد أن خبره واستشف المواهب التي أتاه الله إياها ، وقال له وهو لا يشك في نجابته وصفاء قريحته : « يا زيد إنى أخشى اليهود على كتاب الله تعالى فتعلم العبرية » . وفي رواية أخرى أنه قال له : إن كتبنا تأتيني ولا أحب أن يطلع عليها أحد فتعلم السريانية (٢) ،

وسواء أصحت هذه الرواية أم أن سابقتها هي الصحيحة فإن زيدا قد حذق اللغتين معاً في خمسة عشر يوماً أو في سبعة عشر (٣) ، وهي مدة غاية في القصر ، مما يدل على أن زيداً قد بلغ الأوج الذي لا يدرك ، في سرعة الحفظ وقوة التحصيل . ومن الرواة من يقول : إن زيداً لم يتعلم العبرية والسريانية وحسب وإنما تعلم الفارسية والحبشية والرومية والقبطية ، وهو أمر لم يعهده الناس في أحد منهم من قبل .

وقد تسأل : وكيف تعلم هذه اللغات كلها ، ومن الذى علمه إياها ؟ . والجواب : أنه تعلم هذه اللغات كافة من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، فقد كان

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٥٦٢/٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣٥٨/٢

(٣) ابن حجر : الإصابة ٥٦١/١

فيهم الحبشى والرومى والفارسى والقبطى . أما العبرية والسريانية فان اليهود قد كانوا يحذقونهما في هذه الأيام (١) ، ومن الجائز أن يكون زيد قد تعلمهما ممن أسلم منهم ، وقد كان تعلمه لكل لغة من هذه اللغات في وقت هو غاية في الضالة والقصر .

ومن أجل هذا الذكاء الخارق وهذه الثقافة الواسعة اتخذه النبي عليه الصلاة والسلام كاتباً بين يديه ، فكان يكتب له الوحي ، وكان يقرأ له الرسائل التي ترد اليه من شتى أنحاء شبه الجزيرة العربية ، ومن الملوك والحكام من خارجها (٢) ، وكان يكتب كذلك في حوائجه المختلفة ، وبعبارة أوجز : كان له بمنزلة يده وعينه . وقد كان زيد دقيقاً شديد الانتباه لما كان يمليه عليه رسول الله . جاء في صحيح البخارى أنه لما نزل قوله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » (٣) . دعاه رسول الله وقال له اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله « فجاء ابن أم مكتوم فجعل يشكو ضرارته ، فنزل الوحي على رسول الله فثقلت فخذة على

(١) ابن حجر : الإصابة ٥٦١/١

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٦/٥

(٣) سورة النساء ٩٥/

فخذى حتى كادت ترض فنزل : « غير أولى الضرر » ،
فأمرنى فالحقتها . قال زيد : إنى لأعرف موضع ملحقتها
عند صدع فى ذلك اللوح (١) .

فانظر كيف أن النبى عليه الصلاة والسلام قد كان يدعو
زيداً عندما ينزل عليه القرآن ، وكيف كان يآتمنه على
كتابته ، وكيف كان الوحى ينزل وفخذه على فخذه ،
وأخيراً وليس آخراً كيف كان زيد يحفظ ما يثبته وما
يمحوه ، ومكانه من اللوح على الرغم من قدم الحوادث
ومرور الأعوام . ولا ريب فى أن ملازمة زيد للنبى عليه
الصلاة والسلام وكثرة ترده عليه لكتابة الوحى بين
يديه قد أفاده من وجوه شتى وجوانب متعددة ، فقد
اقتبس من علمه واقتطف من فضله ، واستقى من خلقه
ونبله ، وقد ظهر هذا واضحاً فى حياة النبى صلوات
الله عليه ، فكان زيد يفتى الناس ويقضى بينهم ،
ويؤتاهم مما آتاه الله من الفقه والعلم (٢) ، وقد عده
رسول الله فى النفر الذين ذكر مزاياهم من أصحابه ،
فقال : « وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت » (٣) .

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٥٦٢/٢
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٦/٥
(٣) ابن سعد : الطبقات ٣٥٩/٢

ولم تكن شهرة زيد العقلية هي التي كانت تميزه في حياة النبي عليه الصلاة والسلام وحسب وإنما كانت شجاعته وحسن بلائه وجوده بنفسه في سبيل ربه ونبيه مثلا يضرب وأسوة يقتدى بها . فقد عرض على النبي صلوات الله عليه في كل من بدر وأحد فردة لصغر سنه (١) ، وشهد المشاهد كلها بعد ذلك ، بدءاً من الخندق وانتهاءً بتبوك (٢) . فكان ضمن الذين جاء فيهم قوله تعالى : من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً « (٣) . وقد غادر النبي عليه الصلاة والسلام هذه الدنيا وهو عنه راض وله محب . وكما كان زيد ابن ثابت رضى الله عنه أحد رهبان المسلمين وفرسانهم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد كان كذلك في حياة خلفائه الأربعة ، كان عالماً يحج إليه الناس ، يستفتونه فيفتيهم ، ويسألونه فيفيدهم ، وكان فارساً يغشى المعارك ويخوض المواقع ، ويحمل روحه على كفيه ، لا يغليها في سبيل الله ولا يرضن بها في إعلاء كلمته وانتصار دينه . ففي خلافة أبي بكر رضى الله عنه انخرط

(١) ابن الاثير : اسد الغابة ٢/٢٧٨

(٢) ابن حجر : الاصابة ١/٥٦١

(٣) سورة الاحزاب : ٢٣/

في الجوش التي خرجت لقتال المرتدين ، وقد أصابه وهو يقاتل مسيلمة في اليمامة سهم ، ولولا اللطف لكان فيه حتفه (١) . ولما استحر القتل في الحفاظ وطلب عمر من الصديق جمع القرآن ونسخه ، استدعى أبو بكر زيدا وقال له : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن واجمعه . ففعل ما أمره به (٢) وكان يقول : لقد كلفني أبو بكر بشيء لو كلفني بدلا منه نقل أحد لكان أهون علي ، إجلالا لكتاب الله ، وخوفا من عقابه سبحانه اذا هو هفا أو أخطأ .

وقد حمل رضى الله عنه هذه المهمة على كاهله وأداها كأحسن ما يكون الأداء وأعظمه . وفي خلافة الفاروق رضى الله عنه كان زيد موضع التقدير منه ومن غيره ، استخلفه على المدينة مرتين إحداها في حجته الأولى ، والأخرى في حجته الثانية (٣) ، واستخلفه مرة ثالثة عندما خرج الى الشام ، وهناك أثنى عليه ونوه بعلمه وفقهه ، وقال وهو يخطب الناس في الجابية : من أراد

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٥٦٢/٢

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٥٥٢/١

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٧/٥

أن يسأل عن شيء في الفرائض فليسأل زيد بن ثابت (١) :
وكان يفرق العلماء في التواحي ويستبقى زيدا في المدينة
الى جواره فاذا سئل عن ذلك قال : إن هذا البلد في
حاجة الى علمه وفقهه (٢) .

وقد نسج على هذا المنوال نفسه عثمان وعلى ، فقد
كان الأول يستخلفه على المدينة اذا غاب عنها (٣) ،
وكان الثاني يقدره ويوقره على الرغم من أنه لم يشارك
في القتال معه (٤) ، شأنه في هذا شأن سعد بن أبي وقاص
وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ممن أبى
أن يسئل سيفاً في وجه مسلم . وقد رآه عبد الله بن عباس
فأخذ بخظام دابته وقال : هكذا أمرنا أن نفعل
بعلمائنا (٥) ، فقبل زيد يده وقال : وهكذا أمرنا أن
نفعل بأهل بيت نبينا .

وفي العام الخامس والأربعين على المشهور (٦) هوى
هذا الكوكب اللامع والنجم الساطع بعد ما أضاع للناس

(١) ابن سعد : الطبقات ٣٥٩/٢

(٢) ابن سعد : الطبقات ٣٦٠/٢

(٣) ابن كثير : السيرة النبوية ٥٦٢/٣

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٣٤٧/٥

(٥) ابن سعد : الطبقات ٣٦٠/٢

(٦) ابن حجر : الاصابة ٥٦٢/١

الطريق وأنار لهم السبيل وأفنى حياته في خدمة القرآن وجمعه في خلافة كل من أبى بكر وعثمان ، وقد أثنى عليه ابن عباس وغيره بما هو أهله وقالوا : لقد مات العلم يوم مات أبو سعيد (١) . فرضى الله عنه ، وأحسن في الآخرة له الأجر والثوبة .

سعد بن عبيد القارىء :-

وهذا هو سعد بن عبيد ، أو سعيد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد (٢) . أحد حفاظ الأنصار الخمسة ، وكان المسلمون يدعونه في حياته القارىء (٣) ، ولم يطلقوا هذا الاسم على غيره لا من الأنصار ولا من المهاجرين . ولا خلاف بين الرواة في أنه رضى الله عنه قد شهد بدرأ وشهد المشاهد كلها بعد ذلك مع النبى صلوات الله وسلامه عليه (٤) . وقد كان رضى الله عنه من فرسان المسلمين وشجعانهم في حياة النبى عليه الصلاة والسلام وحياة أبى بكر وعمر من

(١) ابن سعد : الطبقات ٣٦٠/٢

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٣٥٩/٢

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ٤١/٢

(٤) ابن حجر : الاصابة ٣١/٢

بعده . ويقول الرواة : إنه كان أحد الذين شاركوا في وقعة الجسر التي دارت رحاها بين المسلمين والفرس ، والتي كانت الدبرة فيها على الجيش الاسلامى الذى كان تحت قيادة سعد بن مسعود الثقفى . وقد هزم سعد بن عبيد هذا فيمن هزم ، وقد آله هذا وآذاه ، وكان المسلمون يعرفون ذلك منه ، والدليل على هذا أن عمر رضى الله عنه أراد أن يبعثه الى الشام حيث المعارك الدائرة بين المسلمين والروم (١) ، لأنهم هم الأعداء الذين سقوه كأس الهزيمة . وانخرط رضى الله عنه فى الجيوش الاسلامية الزاحفة الى القادسية (٢) ، تجت قيادة أسد الله وأسد رسوله سعد بن أبى وقاص .

ويقول الرواة : إن سعد بن عبيد خطب الناس فى القادسية وأعلن أنه ميت غدا ، وطلب منهم ألا يغسلوا دمه وأن يكفنوه فى ثوبه ، وقد كان الأمر كما قال (٣) ، وتلك كرامة أعلى الله بها قدر سعد بن عبيد ورفع شأنه ومنزلته . ومع قلة ما رواه عنه الرواة فإنه رضى الله عنه قد كرس جهده ووقته لقراءة القرآن وحفظه ، وأنه

(١) ابن سعد : الطبقات ٤٥٨/٣

(٢) ابن سعد : الطبقات ٤٥٨/٣

(٣) ابن الأثير : اسد الغابة ٣٥٩/٢

(٤) ابن حجر : الاصابة ٣١/٢

قد كان يؤم المسلمين في مسجد قباء (١) ، وقد سبق
وذكرنا أن أهل المدينة وغيرهم من المسلمين قد كانوا
يطلقون عليه اسم القاريء ، ولا يطلقون هذا اللفظ
على غيره ، ومعنى هذا أنه قد كان يتلو كتاب الله تعالى
تلاوة المجيد المتقن ، وأنه قد أوتي الصوت الجميل الذي
يستقطب الأنفس والأفئدة ، ويهز العواطف والمشاعر .
فرحم الله سعد بن عبيد ، وأجزل له المثوبة على حفظه
كتابه ، وتكريسه عمره لتلاوة آياته وسوره ، في خشوع
نفس وحضور قلب ، وألبسه تاج الكرامة على رأسه يوم
القيامة ، وجعل منزلته في الفردوس الأعلى عند آخر
آية تلاها لسانه وتأملها قلبه ، وإنه لأهل لذلك التكريم
والتفخيم ، فطوبى له ، وطوبى لمن اقتفى أثره ونسج
على منواله .



(١) ابن حجر : الاصابة ٢/٣١

عويمر بن عامر وقراءة القرآن :-

وهذا هو أبو الدرداء عويمر بن عامر بن مالك بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي (١) ، أحد قراء القرآن وحفاظه في حياة النبي صلوات الله وسلامه عليه .

إحترف التجارة في الجاهلية وتأخر دخوله في الاسلام (٢) حتى اعتنقه أهل داره كافة ، والسر في انقياده له وانضوائه تحت لوائه هو أن عبد الله بن رواحة أتى منزله وحطم الصنم الذي كان يعبده ، وكان غائبا فلما عاد سأل عنه ف قيل له : لقد جعله ابن رواحة جذاذا كما ترى . فقال : لو كان رباً لدافع عن نفسه ، وأتى رسول الله ﷺ فسمع منه وأسلم بين يديه ، واعتزل مهنته التي كان يكسب منها القوت لأنها لم تمكنه من التفرغ لدينه وعبادته (٣) ، وكرس جهده ووقته لحفظ القرآن آية بعد آية ، وسورة إثر سورة ، حتى أتمه كله ، ونال الشرف الذي لم ينله غير أربعة معه ، هم كل من حفظ كتاب الله تعالى من أهل بلده (٤) .

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٥/٣

(٢) ابن حجر : الاصابة ٤٥/٣

(٣) ابن حجر : الاصابة ٤٥/٣

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٦/٣

وقد اتفق الرواه على أنه رضى الله عنه لم يشهد بدرا لأنه لم يكن قد اعتنق الحنيفية بعد (١) ، واختلفوا في شهوده أحداً ، والراجح أنه قد شهدها ، لثناء النبى عليه الصلاة والسلام عليه فيها(٢) ، أما المشاهد الأخرى من الخندق حتى تبوك فإن الرواة متفقون على أنه قد شهدها تحت ألوية النبى صلوات الله وسلامه عليه وراياته (٣) . وقد كان أبو الدرداء رضى الله عنه من الذين يؤثرون الضعف على القوة ، والفقر على الغنى ، والزهد على الانهماك فى متع الدنيا وأطايب الحياة ، وكان يقول فى ذلك : أحب الفقر تواضعاً لله ، وأحب الموت رغبة فى لقاءه ، وأحب المرض تكفيراً لخطاياى . وكان رضى الله عنه حكيماً عالماً (٤) ذا فهم عميق ، وفقه دقيق ، وكان أهل عصره لا ينازعون فى استحقاقه لهذه المناقب ، ولا يمارون فى استعداده لهذه المآثر والمفاخر . شهد له رسول الله ﷺ فقال : « حكيم أمتى أبو الدرداء » (٥) . وقال فيه مسروق : شافهت أصحاب

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ٣١٩/٤

(٢) ابن حجر : الإصابة ٤٥/٣

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٦/٣

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة ٣١٩/٤

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٧/٣

النبى صلوات الله وسلامه عليه فوجدت علمهم قد انتهى إلى ستة وهم : عمر ، وعلى ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وأبى الدراء ، وزيد بن ثابت (١) . وما كان الرجل ليرقى إلى هذه المنزلة ويصل إلى ذلك الأوج إلا لكثرة تلاوته للقرآن وتدبره له ، واستنباطه لأحكامه ، وبحثه فى حلاله وحرامه . وقد سبق وذكرنا أنه قد ترك التجارة وكانت مهنته فى الجاهلية ، وتفرغ للإسلام يدرس أحكامه ، ويجلى مبادئه وتعاليمه ، ويسقى طلابه ومريديه مما أفاضه الله عليه ، من كنوز كتابه الخالد الذى لا تنتهى عجائبه ، ولا تنفذ غرائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . وقد كان طلاب العلم وعشاق المعرفة يقصدون اليه فتخلبهم حلاوة ألفاظه ، وطلاوة كلماته ، وحسن منطقته ، وروعة تعبيره . واسمع اليه إن شئت وهو يصف الحياة الدنيا : « الدنيا دار كدر ، ولن ينجو منها إلا أهل الحذر ، والله فيها علامات يسمعها الجاهلون ، ويعتبر بها العالمون ، ومن علاماته فيها أن حفها بالشهوات ، فارتطم فيها أهل الشبهات ، ثم أعقبها بالآفات ، فانتفع بذلك أهل العظات ، ومزج حلالها بالمؤنات ، وحرامها بالتبعات ،

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٦/٣

فالمثرى فيها تعب ، والمقل فيها نصب» (١) .

وقد كان الناس في حياة أبي الدرداء يتحدثون عن زهده في الدنيا وعمله للأخرة ، واستعذابه كل صعب وتعب في خدمة كتاب الله تعالى وإفادة المسلمين من اللطافة وأسراره (٢) . روى الليث بن سعد بسنده الى عوف بن مالك أنه رأى في المنام قبة آدم في مرج أخضر ، وحول القبة عنم ربوض تجتر وتبعر العجوة . قال : فقلت لمن هذه القبة ؟ . قيل : هذه لعبد الرحمن بن عوف ، فانتظرناه حتى خرج فقال : يا عوف هذا الذى أعطانا الله بالقرآن ، ولو أشرفت على هذه الثنية لرأيت بها ما لم تر عينك ولم تسمع أذنك ولم يخطر على قلبك مثله ، أعده الله لأبى الدرداء إنه كان يدفع الدنيا بالراحتين والصدر .

وقد نزل أبو الدرداء دمشق وأقام فيها وولاه عمر رضى الله عنه القضاء (٣) ، وكذلك فعل عثمان (٤) . وكان أبو الدرداء لا يميل الى هذا المنصب ولا يستريح

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٨/٣

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٦/٣

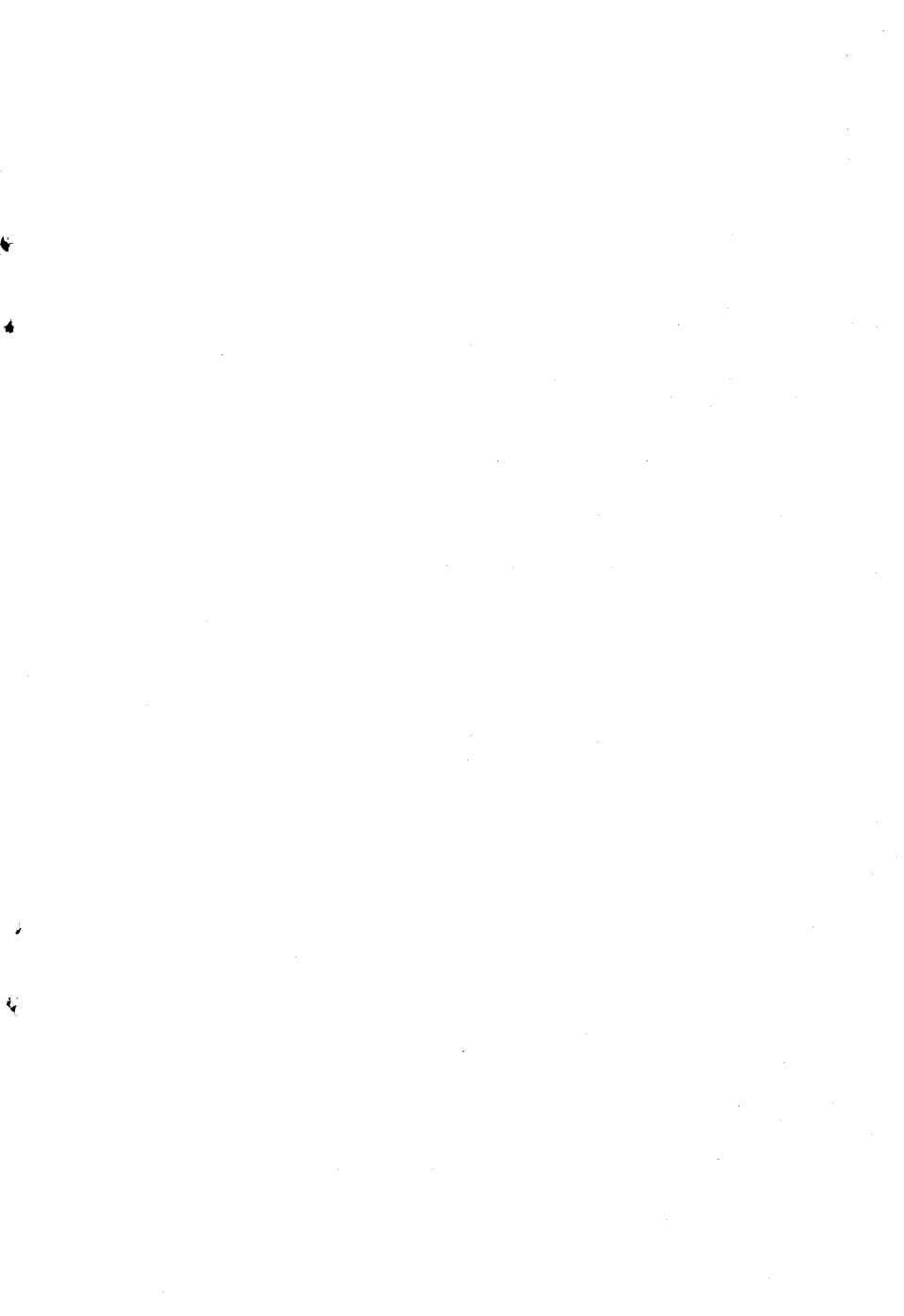
(٣) ابن حجر : الإصابة ٤٦/٣

(٤) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٧/٣

إليه ، لكثرة ما يبذل من جهد أثناء ممارسة أعبائه ،
في تحرى الحق ، وتوخى العدل ، وإنصاف المظلوم من
الظالم . وقد اختلف المؤرخون في العام الذى لقى الله
فيه . وأرجح ما فى هذه الأقوال هو أن وفاته قد كانت
فى خلافة عثمان رضى الله عنه ، وفى العام الثانى
والثلاثين من هذه الخلافة على سبيل التحديد (١) .
فرحم الله حكيم أمة الاسلام ، وأطرى جهاده وكفاحه
فى خدمة القرآن ، وأعطاه ما هو أهل له من النعيم
المقيم والمقام الكريم .



(١) ابن الاثير : أسد الغابة ٣١٩/٤



معاذ بن جبل إمام الفقهاء : -

وهذا هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الخزرجي الأنصاري (١) ، صاحب رسول الله وقاضيه ومبعوثه المالي والتعليمي الى بلاد اليمن (٢) . وقد اتفق الرواة على أنه رضى الله عنه قد حضر العقبة وبايع رسول الله ﷺ ضمن السبعين الذين بايعوه فيها (٣) . ويخيل إلى أن إسلامه قد كان في المدينة وعلى يدي مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم كليهما . ولا خلاف بين المؤرخين في أنه رضى الله عنه قد كان طويل الجسم ، جميل الوجه (٤) ، كحيل العينين ، مزجج الحاجبين ، براق الثنايا (٥) ، يخطر في برود الصبا ، ويمشى في حلل الشباب . وقد شهد بدرًا وله من السن إحدى وعشرون سنة (٦) . ولما آخى النبي عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين عبد الله بن مسعود (٧) ، وقيل :

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٥٥

(٢) ابن كثير : السيرة النبوية ٢/٣٥٢

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٨٣

(٤) ابن حجر : الاصابة ٣/٤٢٧

(٥) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٥٦

(٦) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٨٤

(٧) ابن سيد الناس : عيون الاثر ١/٢٦٦

بل آخى بينه وبين جعفر بن أبى طالب . غير أن هذه الرواية الثانية عارية من الصحة فإن جعفر بن أبى طالب قد عاد من الحبشة فور فتح خيبر (١) ، وقد كانت المؤخاة إثر الهجرة من مكة الى المدينة .

ولا خلاف بين الكتاب والباحثين فى أن معاذاً قد شهد المشاهد كلها مع النبى عليه الصلاة والسلام (٢) ، فلم يقعد عن غزوة ، ولا غاب عن مشهد ، وقد أحبه رسول الله ﷺ وأعلن حبه له فقال : « يا معاذ إنى أحبك (٣) فقل دبر كل صلاة سبحان الله ثلاثاً وثلاثين ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين ، والله أكبر ثلاثاً وثلاثين » .

ويظهر أن معاذاً قد كان كثير الإنفاق ، فقد نفذ ماله وركبته الديون ، ولحقه الغرماء ، حتى توسط النبى صلوات الله وسلامه عليه بينه وبينهم فأبوا أن ينظروه ، أو يؤجلوا شيئاً منه ، فاضطر صلوات الله عليه إلى أن يبيع ماله فى دينه (٤) . ولما فتحت مكة بعثه عليه الصلاة والسلام الى اليمن قاضياً ومعلماً وعاملاً على الصدقات يجمعها من الجبابة ، وأحل له قبول الهدية ، وعقد له اختباراً قال له فيه : يا معاذ بما تقضى بين الناس ؟

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٢٠٦/٤

(٢) ابن سعد : الطبقات ٥٨٤/٣

(٣) ابن حجر : الاصابة ٤٢٧/٣

(٤) ابن كثير : السيرة النبوية ٣٥٤/٢

قال : أفضى بينهم بكتاب الله . قال : فإن لم تجد . قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد . قال أجتهد لهم ولا آلو . فأشرق وجهه ، وتهلت أساريره ، وقال وهو يربت على صدره : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يحبه الله ورسوله (١) . ولما أعد رواحله وعزم على الانطلاق الى اليمن أجلسه صلوات الله عليه بين يديه ، وعلمه كيف يسوس رعيته ، وقال : « حفظك الله من خلفك ، ومن بين يديك ، وعن يمينك ، وعن شمالك ، ومن فوقك ، ومن تحتك ، ودرأ عنك شرور الإنس والجن » (٢) . وقد أقام معاذ فى اليمن حتى قبض النبى صلوات الله عليه (٣) . وقد اتجر وحسنت حاله ، ثم قدم إلى المدينة فلما دخلها قال عمر لأبى بكر : أرسل إلى هذا الرجل فدع له ما يعيشه ، وخذ سائره منه ، فقال أبو بكر : إنما بعثه النبى صلى الله عليه وسلم ليجبره ، ولست بأخذ منه شيئاً إلا أن يعطينى . فانطلق عمر اليه ، إذ لم يطعه أبو بكر فذكر ذلك لمعاذ ، فقال معاذ ، إنما أرسلنى إليه النبى ﷺ ليجبرنى ولست بفاعل ، ثم أتى معاذ عمر فقال : قد أطعتك وأنا فاعل ما أمرتنى به ، فإنى رأيت فى المنام أنى فى حومة ماء

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠٣/٥

(٢) ابن حجر : الاصابة ٤٢٧/٣

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١٠١/٥

قد خشيت الغرق ، فخلصتني منه يا عمر . فأتى معاذ
أبا بكر فذكر ذلك كله له وحلف أنه لا يكتمه شيئاً ، فقال
أبو بكر : لا آخذ منك شيئاً قد وهبته لك (١) . فقال
عمر : هذا حين حل وطاب . وعند ذلك خرج معاذ الى
الشام ، وهناك كان يجلس للناس فيعلمهم أحكام
دينهم ، ويجيب عن أسئلتهم في كل ما يعن لهم وما
يشكل عليهم ، ويخوض معهم المعارك التي كانت تدور
رحاها بينهم وبين الروم (٢) .

ولما مات أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه أسند
إليه عمر عمله ، إطمئناناً اليه ، وثقة في كفاءته
وقيادته (٣) . ولما اشتد الطاعون وهلك فيه من هلك من
الشباب والشيوخ أتى الناس معاذاً وقالوا له : أدع الله
يرفع عنا هذا الرجز قال : إنه ليس برجز ، ولكنه دعوة
نبيكم ﷺ ، وموت الصالحين قبلكم ، وشهادة يختص
الله بها من شاء منكم ، اللهم آت آل معاذ نصيبهم الأوفى
من هذه الرحمة (٤) ، فطعن ابنه ، فقال : كيف
تجدانكما ؟ قالوا : يا أبانا الحق من ربك فلا تكونن من

(١) ابن كثير : السيرة النبوية ٢/٣٥٤

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٥٩

(٣) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٥٩

(٤) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٨٨

الممتريين ، فقال : وأنا ستجدانى إن شاء الله من الصابرين . ثم طعنت امرأتاه فهلكتا ، وطعن هو فى إبهامه فجعل يمصها بفيه ويقول : اللهم إنها صغيرة فبارك فيها ، فإنك تبارك فى الصغير ، حتى هلك (١) .

ويقول المؤرخون وكتاب السير : إن معاذاً رضى الله عنه قد كان من النفر القليل الذى حفظ القرآن كله فى حياة النبى صلوات الله عليه ، وإنه قد أفنى عمره فى استنباط أحكامه ، ومعرفة حلاله وحرامه ، وإنه قد بلغ فى ذلك شأنًا لم يبلغه غيره ، حتى لقد قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام : « أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل (٢) » . وقال : خذوا القرآن عن أربعة ، وجعله واحداً منهم . وقال فيه الفاروق : لولا معاذ لهلك عمر (٣) . وقال أبو مسلم الخولانى : دخلت مسجد حمص فإذا فيه ما يقرب من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبى ﷺ ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ساكت لا يتكلم ، فإذا امترى القوم فى شىء أقبلوا عليه فسألوه ، فقلت لجليس لى : من هذا ؟ قال :

(١) ابن سعد : الطبقات ٥٨٩/٣

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣٥٧/٣

(٣) ابن حجر : الاصابة ٤٢٧/٣

معاذ بن جبل (١) . وعلى الرغم من هذا النبوغ وهذه الشهرة العلمية الواسعة التي كان يتمتع بها معاذ بن جبل فإنه قد لقي الله تعالى وهو في الثالثة والثلاثين (٢) ، أو في الثامنة والثلاثين (٣) ، أى أنه قد غادر هذه الدنيا وهو في ميعة الصبا وربيع الشباب . فسلام على معاذ ابن جبل في الأولين ، و سلام عليه في الآخرين ، و سلام عليه وهو يؤم حفاظ القرآن العظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وبعد فهؤلاء هم حفظة القرآن في حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وما منهم كما عرفت إلاّ من علا شأنه ، وارتفعت منزلته ، وساد في عصره الذى عاش فيه ، وما أعدّه الله لهم في الآخرة من الأجر العظيم والنعيم المقيم أبقى وأعظم . وقد تضافرت الروايات على أن عدد هؤلاء الحفاظ اثنا عشر ، وأنت خبير بأن عدد الشهور عند الله اثنا عشر ، وأن أسباط بنى إسرائيل اثنا عشر ، وقل مثل ذلك في نقبائهم ، وفي نقباء الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ، وحتى

(١) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٨٧

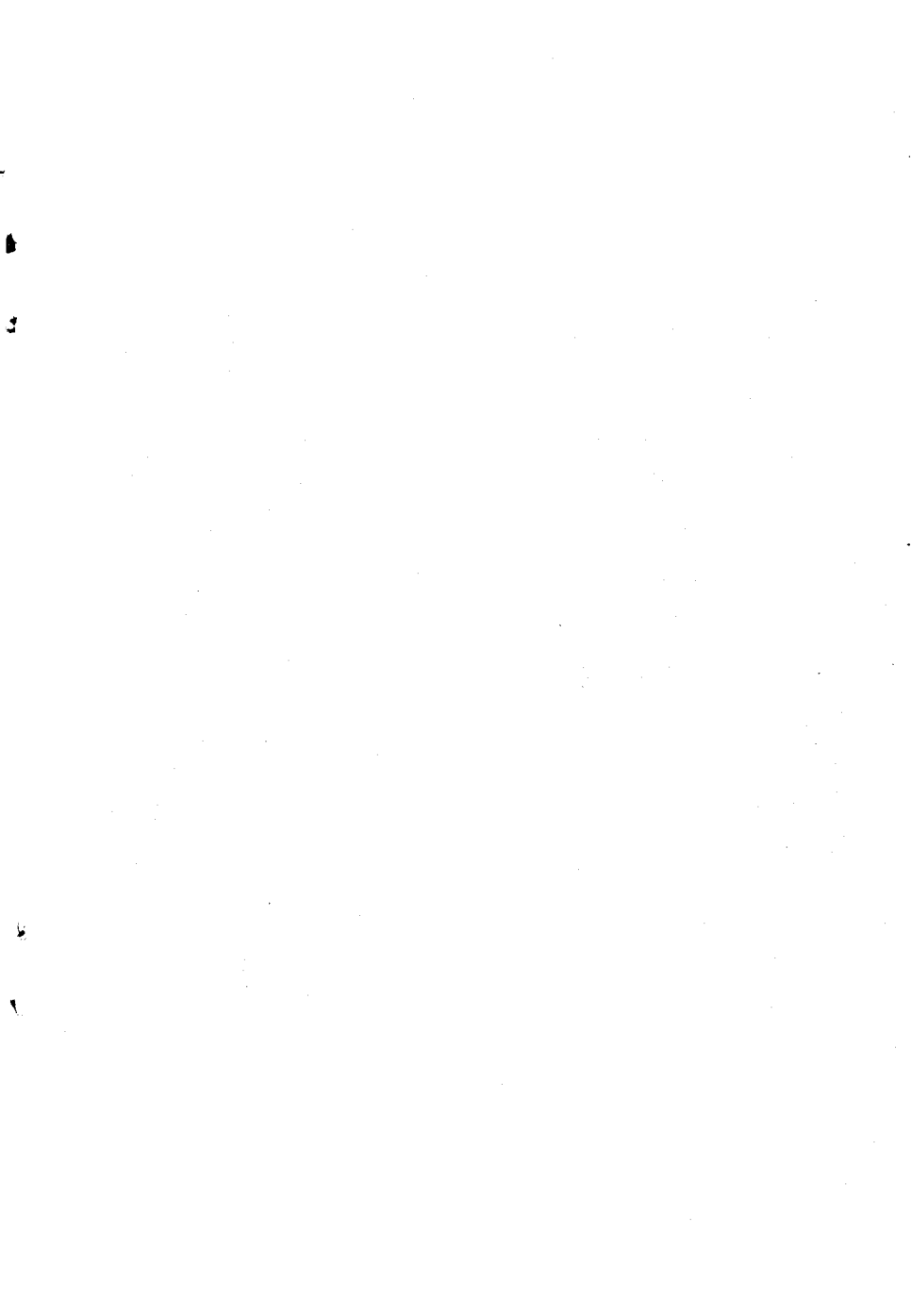
(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب ٣/٣٥٩

(٣) ابن سعد : الطبقات ٣/٥٩٠

العباسيون فإنهم لما خططوا للخلافة وأرسلوا دعواتهم الى خراسان اختاروا منهم اثني عشر نقيباً . فليت شعري ما سر هذا العدد ، وهل هي الصدفة التي تدخلت في هذه الأحداث كافة ، أم أن لذلك علة ربما يكشف عنها البحث الجاد والدرس الدقيق . ومهما يكن من شيء فإنني قد كرس لهدى السطور جهدي وفرغت لها وقتي ، وحاولت فيها السهولة والاختصار ما استطعت ، فإن وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وإن انحرفت عن الجادة وضللت السبيل المستقيم فبذنوبي التي اكتسبتها وآثامى التي تورطت فيها ، لأن العلم نور ، ونور الله لا يهدى إلا لمن أطاعه واتبع هداه .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » .





أهم المصادر

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - ابن الأثير « أبو الحسن على بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني » ت سنة ٦٣٠ هـ :
- ٣ - أسد الغابة في معرفة الصحابة . طبعة دار الشعب . تحقيق / محمد ابراهيم البنا وآخرين .
- ٤ - الكامل في التاريخ . الطبعة المنيرية سنة ١٣٤٩ هـ . تحقيق : الأستاذ عبد الوهاب النجار .
- ٥ - ابن حجر « الامام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني » ت سنة ٨٥٢ هـ :
- ٦ - الاصابة في تمييز الصحابة . مطبعة السعادة ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ .
- ٧ - الحلبي « على بن برهان الدين الحلبي الشافعي » ت سنة ١٠٤٤ هـ .
- ٨ - انسان العيون في سيرة الأمين المأمون . دار المعرفة . بيروت .
- ٩ - الزركشي « بدر الدين الزركشي » :
- ١٠ - البرهان في علوم القرآن . دار المعرفة . بيروت سنة ١٩٧٢ هـ . تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .
- ١١ - ابن سعد « محمد بن سعد بن منيع . كاتب الواقدي » ت سنة ٢٣٠ هـ :
- ١٢ - الطبقات الكبرى . دار صادر . بيروت سنة ١٩٥٧ م .
- ١٣ - ابن سيد الناس « فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي الأشبيلي المصري » ت سنة ٧٣٤ هـ :
- ١٤ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير . مكتبة القدس . القاهرة .

— السيد محمود الألوسى :

- ٩ — روح المعانى . دار الفكر . بيروت سنة ١٩٧٨ م .
— السيوطى « جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى »
ت سنة ٩١١ هـ :
- ١٠ — الاتقان فى علوم القرآن . مطبعة حجازى . القاهرة .
— الطبرى « أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى » ت سنة ٣١٠ هـ :
- ١١ — تاريخ الرسل والملوك . طبعة دار المعارف . تحقيق : محمد
أبو الفضل ابراهيم .
- ١٢ — جامع البيان عن تأويل آى القرآن . مطبعة مصطفى الحلبي .
القاهرة . ط ٣ سنة ١٩٦٨ م .
- ابن عبد البر « أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن
عبد البر » ت سنة ٤٦٤ هـ :
- ١٣ — الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . على هامش الاصابة لابن
حجر . مطبعة السعادة . سنة ١٣٢٨ هـ .
- القرطبي « أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبي »
ت سنة ٦٢٦ هـ :
- ١٤ — الجامع لأحكام القرآن الكريم . المعروف بتفسير القرطبي .
طبعة دار الشعب .
- ابن كثير « أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى »
ت سنة ٧٧٤ هـ :
- ١٥ — البداية والنهاية . دار الفكر . بيروت سنة ١٩٧٨ م .
- ١٦ — تفسير القرآن العظيم . طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة .
- ١٧ — السيرة النبوية . دار الكتب العلمية . بيروت . تحقيق :
الأستاذ أحمد عبد الشافى .
- محمد رشيد رضا :
- ١٨ — تفسير المنار . الهيئة المصرية العامة للكتاب . سنة ١٩٧٢ م .

- المقریزی « تقی الدین أحمد بن علی المقریزی » ت سنة ٨٤٥ هـ :
- ١٩ — امتاع الأسماع بما للرسول من الأتباء والأموال والحفدة والمتاع .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . تحقيق : محمود محمد
شاكر .
- النووی « الإمام محیی الدین أبو زکریا یحیی بن شرف النووی .
ت سنة ٦٧٦ هـ :
- ٢٠ — ریاض الصالحین . دار الحدیث . القاهرة .
- ابن هشام « أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافری » ت سنة
٢١٣ هـ :
- ٢١ — السیرة النبویة . مكتبة الكليات الأزهریة . تحقيق : طه
عبد الرؤف سعد .
- الیعقوبی « أحمد بن أبی یعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح »
ت سنة ٢٨٢ هـ :
- ٢٢ — تاریخ الیعقوبی . دار صادر . بیروت .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
اهـداء :	٣
تقديم : لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد السيد أحمد سعود	
الامين العام لمجمع البحوث الاسلامية	٥
المقدمة :	٧

الفصل الأول

القرآن وعلومه :	١٧
وصف القرآن :	١٩
نزول القرآن :	٢١
تنجيم القرآن :	٢٣
المكى والمدنى من القرآن :	٢٨
تلقى النبى للقرآن :	٣٠
تلقى الصحابة للقرآن :	٣٣
منزلة قارىء القرآن :	٣٨
الأحرف واللهجات التى نزل عليها القرآن :	٤٠
المنهج النبوى للمحافظة على القرآن :	٤٨
الجمع الأول للقرآن :	٥٦
الجمع الثانى للقرآن :	٥٩
ترتيب الآيات والسور فى القرآن :	٦٤
بين القرآن والسنة :	٧١
تفسير القرآن :	٧٥

الفصل الثانى

القرآن وحفاظه فى مكة :	٨١
خصائص القرآن المكى وأهدافه :	٨٣

الصفحة	الموضوع
٩٥	أبو بكر الصديق ودوره في خدمة القرآن :
١٠٩	عمر الفاروق ودوره في خدمة القرآن :
١٢٩	عثمان وتوحيد المصاحف :
١٤١	علي والقرآن :
١٥٩	ابن مسعود وافشاء القرآن :
١٦٩	عبد الله بن عمرو وختم القرآن :
١٧٤	سالم وقراءة القرآن :

الفصل الثالث

١٨١	القرآن وحفاظه في المدينة المنورة :
١٨٣	خصائص القرآن المدني :
١٨٩	أبيّ بن كعب سيد القراء :
١٩٥	زيد بن ثابت وجمع القرآن :
٢٠٢	سعد بن عبيد القاريء :
٢٠٥	عويهر بن عامر وقراءة القرآن :
٢١٠	معاذ بن جبل امام الفقهاء :



رقم الايداع ٢٧٤٠ / ١٩٩٢

I.S.B.N. 977 - 5001 - 01 - 3

مطبعة الأزهر الشريف

١٩٩٢ / ٢ / ٧٠٠٠